



إبراهيم عبد القادر المازني

عود على بدء

عود على بدء

تأليف
إبراهيم عبد القادر المازني



عود على بدء

إبراهيم عبد القادر المازني

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠١٤١ ٢

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٣.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٠.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة

المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل

الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	الفصل الأول
٩	الفصل الثاني
١٥	الفصل الثالث
٢١	الفصل الرابع
٢٥	الفصل الخامس
٣١	الفصل السادس
٣٥	الفصل السابع
٤١	الفصل الثامن
٤٧	الفصل التاسع
٥١	الفصل العاشر
٥٩	الفصل الحادي عشر
٦٥	الفصل الثاني عشر
٧٣	الفصل الثالث عشر
٧٧	الفصل الرابع عشر

الفصل الأول

قالت امرأتى ونحن ندنو بالسيارة من طنطا: «بعد زيارة السيد البدوى، مل بنا إلى بيت الشیخة صباح لنسلم علیها.»

قلت: «لا صباح ولا مساء. الوقت ضیق ...».

قلت: «أرجو، لأجل خاطرى ...».

قلت: «یا امرأة، ألا تتقین الله فی هذا العبد الصالح الذى سخره الله لخدمتك وخدمة

بنیک؟»

قالت متهکمة، مستضحكة: «أنت عبد صالح؟»

قلت: «من حسن الحظ أنه لن تنصب امرأة لنا المیزان يوم الحساب. على كل حال، نحن الآن بعد العصر، وما زال علينا — على أنا — أن نقطع مائة كيلو وزيادة قبل أن نبلغ القاهرة، وأخشى أن يتحلل بى التعب إذا أدركنا الليل قبل أن أفرغ من الطريق، أم ترى تعبى راحة لك؟ ثم إنك قد سلّمت علیها منذ أربعة أيام ليس إلا، فما حاجتك إلى سلام جدید؟ أهو زاد تتزودینه للطریق؟»

قالت، وكأنها تحلم: «لست أشبع من النظر إلى حسن وجهها.»

وقد صدقت.

فقد كانت الشیخة صباح، على الرغم من «التمشیخ» غیداء، حسناء، مبدّلة، ورطبة حلوة، یجرى ماء الشباب فی محیّاها من نضرة النعمة، ولو طبع وجهها على «جَنِيّه» لزانته وأغلّته، وكان شعرها، الفاحم السبط، والورد الذى تتضرّخ به وجنتاها من آیات صنع الله، تبارك وتعالى من خلاق عظیم، أما عینها النجلاء الرقيقة الجفن «الجَنِيّة» الانسان فأنقذ من أشعة «إكس» إلى حنايا الصدور وطوايا القلوب.

وقلت: «إذا كنت تشعرين أنك لن تطيقي الحياة إلا إذا حملتك إلى ذلك البيت الضيق لأختنق ساعة بالبخور المنطلق من المجامر حتى تتفضل فتبرز لك، وتمن عليك بإنباكك — وأنا من الشاهدين — أن «أمامك سفراً...».

فصاحت بى مقاطعة: «اسكت، وحذار أن تذكرها بغير الخير».

فكست، وما حيلتى؟

ورفع السجف، ودخلت علينا الشيخة صباح مسترسلة الأعطاف، ناعمة، غير متنتية على لينها، كأنها مَلَكَة. وكانت ترتدى ثوباً أبيض رقيقاً من الكتان، وتغطي رأسها بِشَفٍّ ينسدل على جانبي وجهها إلى كتفها وصدرها الناهد، ويحجب جيدها الأتلع ويدور على ذقنها إلى قريب من ثغرها الدقيق الرفاف الشفتين الذى ما خلق إلا للقلبات الحرار، لا لما يلهج به، وأستغفر الله..

وقبّلت زوجتى، ومدت إلى يداً هممت أن أبوسها بطناً وظهراً، لولا هذه الزوجة التى لا تزال تظلمنى بسوء ظنها.

ولما دارت القهوة. نظرت إلى وقالت: «أرنى كفيك ... ابسطهما».

ولمستهما لمساً خفيفاً ثم أرسلتهما وأطرقت شيئاً ثم رفعت رأسها وحدقت فى دون أن تطرف وقالت: «ستعطى ما لم تطلب، وتؤتى ما لا يباع ولا يشتري، وتُسَلِّبُهُ فى اليوم نفسه...».

فرفعتُ عيني إلى السماء — أو إلى السقف — ولمحت زوجتى وقد أخذ كتفاها يهتزان من الضحك المكتوم.

ومضت الشيخة صباح فى كهانتها غير عابئة بنا: «... وسينضى عنك ثوب الرجولة ... إلى حين يا صاحبى».

ونحّت وجهها عنى.

وقالت وهى تودعنا: «أحسبني لم أخاطب منك سوى أذنيك، فإننى أحس أن قلبك بعيد...».

فأكدت لها أنه «ما زال فى موضعه، تحت الضلع العاشر، أم تراه الخامس عشر؟ معذرة، فلست أعرف عدد هذه الضلوع».

فجذبتنى امرأتى، من ذراعى، ثم دفعتنى خارجاً، وسمعتها تقول للشيخة صباح: «إنه يمزح ... فلا تغضبى عليه».

فقرضت أسناني، ولم أقل شيئاً.

الفصل الثاني

ولما صرنا فى البيت، وجلسنا إلى المائدة نتعشى، قال أحد الشقيين — ولدىّ ولا فخر: «هل تعلمين يا ماما أنك عدت أصبى وأجمل؟ ومع ذلك لم تغيبى سوى أيام أربعة». قلت: «لا عجب. فقد استراحت من وجع الرأس الذى تورثانها». فضحك الشقى الأكبر، وعاد الأصغر يقول: «صحيح يا ماما — رجعت بنت عشرين». فقلت: «فى مثلك سنك وتنافق، وتداهن، وتتملق، فكيف إذا دخلت مداخل الرجال؟ فألقت إلّى نظرة تنطوى على نذير أعرفه بالتجربة، فلئن لم أستدرك ليحيقن بى ما أكره من ائتمارها مع هذين اللعينين، فقلت: «وهل رأيتهَا أسنّت وكبرت، وشابت، وشيخّت حتى تقول إنها ارتدت بنت عشرين؟ ومتى كانت إلا بنت عشرين أو أقل ... رفاة الحسن...».

«ولو ...».

فبلعت ريقى، وبلعت معه لقمة بلا مضغ. وعاد الأصغر يسأل — فإنه ثرثرة مشهور: «قولى لى يا ماما. ماذا تصنعين إذا رُددت بنت عشر؟

قالت بسرعة: «أذهب ألعب معكما».

قال: «وبابا..؟ ماذا يصنع؟»

قالت، وهزت كتفيها: «يصنع ما بدا له.. مالى أنا؟

قال: «وتظللين زوجته؟»

قالت، وعينها على: «أظل زوجة هذا الذى تصطك ركبته من الكبر؟

ولم يكن عندي لهذا الطعن القبيح المفاجئ، جواب حاضر. وعلى أنها لم تمهلني فمضت تقول: «بل كنت أنتظر حتى أبلغ وأرشد، ثم أزعج إلى فتى نجيب بارع عليه طلاوة، وله مال، وفي خلقه دماثة، وفي نفسه طيب وخير».

فقلت: «حسبك! والله يسامحك، وما أظن بك إلا أنك ستعذبين في جهنم الحمراء عذاباً غليظاً طويلاً يما تجحدين من نعمة سيدك وتاج رأسك».

وسكنت الثورة، وقرت الفورة، وجمعت الخادمة ما على الأرض من المقذوفات المرتجلة المصنوعة من لباب الخبز الطرى على هيئة الكرات الصغيرة. وهى خادمة «فلكية» تغنييني عن مرصد، فتريني نجوم السماء طراً في الظهر الأحمر. ورثتها عن أمى. لأنها — أى الخادمة — آنقذتها من بين أخفاف الابل في طريق «منى» قبل عهد السيارات. وكانت أمى رحمها الله قد استصحبته في حجها الأول لتقوم على خدمتها. ولعلها آنست منها القدرة على الشيل والحث. وكانت — أى أمى — وهناة لا عهد لها بالجمال ولا قدرة على احتمال المخض من سيرها فدار رأسها فتدحرجت وهوت إلى الأرض. فلولا أن نطت الخادمة ورفعتها لقضى عليها فحفظت لها هذا الجميل، وأبت أن تسرحها بعد ذلك، وأوصتني بها خيراً، وهكذا ورثتها عنها.

والإرث يباع، أو يرهن، أو يوهب أو يبدد. ولكن الدول، كما تعلم، آجمعت — لمكيدتى — على تحريم الرق. فلا سبيل إلى بيع هذه الخادمة أو رهنها أو وهبها. ثم إنها لا تساوى ملء أذننا نخالة. ومن المستحيل تبديدها لأنها هائلة الأنحاء جدًّا. والعمر — كل العمر — أقصر من أن يتسع لهذا الجهد. وعسير جدًّا إضاعته لأنها تعرف الطريق إلى البيت. ولعله كل ما تعرفه. وقد خطر لى أن أتخلص منها، كما تتخلص الناس من قطعة مزعجة لم يبق فيها خير، فيضعونها في غرارة ويحملونها إلى مكان سحيق، وهناك يطلقونها أو يدلقونها، فتضل الطريق ولا تعود. ولكن أين الغرارة التى تسعها — أعنى الخادمة — وأين الكف التى تقوى على حملها؟ فهى قعيدة البيت ولا حيلة لى فى ذلك.

وشر ما فيها، إخلاصها، ومن العجائب أن تنقلب المحمدة مذمة، والمزية منقصة، والفضيلة رذيلة. ولكنها الدنيا وأنت سيد العارفين. وكل ما فيها اعتبارى، كما لا أحتاج أن أبين لك. قمت مرة برحلة مع صديق لى، فأضافنا رجل كريم، سيد ماجد. ففرحنا وزهينا. فإن مثله يفخر المرء بأن يكون — أى المرء — ضيفاً عليه. وكان يسبق كل رغبة لنا باقتراحها وتحقيقها. ويعنى براحتنا وسرورنا، عناية لم تترك لنا رأياً أو إرادة أو شعوراً حتى بحرية التفكير. وكانت مبالغته فى تحرى مرضاتنا، عن كرم وإحساس

مرهف بالواجب، لا عن ثقل نفس، أو رغبة في التظاهر. وكنا على يقين من هذا. ولكننا مع ذلك ضقنا ذرعاً بهذا الكرم. وما كدنا نرحل حتى تشهدنا كأننا كنا سجناء. وما زلنا نضح كلما تذكرنا كيف ظلمنا هذا الرجل الكريم وغمطنا حقه وجحدنا فضله. وأعود إلى هذه الخادمة المخلصة الأمانة فأقول إنى أغلط أحياناً فأناديها وأطلب أن تجيئني بشيء، فتجيئني بخلافه. ولا تغلط مرة واحدة فتجىء بما أريد. أقول: «هاتى الكبريت».

وليس في لفظ الكبريت ولا في حروفه ما يمكن أن يلتبس «بالجبين الرومى». وهى ليست بالصماء فإن سمعها كسمع القطعة، وأنا خفيض الصوت ولكنى آتوخى معها أن أزق وأصيح، حتى ليبح صوتى، ويوجعنى حلقى، وأمراض يوماً أو يومين ومع ذلك لا تكاد تسمعنى أطلب الكبريت حتى تقول: «حاضر» وتعمد إلى ملاءة سوداء تلفها على نفسها — فإنها حية — وتخرج فتشترى لى جبناً قد يكون رومياً غير مزيف أو مقلد، ولكنه لم يخطر لى على بال، ولا كانت لى رغبة فيه.

وأراها مقبلة علىّ تحمل على كفيها صينية عليها طبق فيه الجبن الرومى وشوكة وسكينة وفوطة ولقمة — فإنها تدرك من تلقاء نفسها وبغير حاجة إلى تلقين أن الجبن لا يؤكل وحده فلا بد من خبز معه، وما دام سيدها سيأكل، وقد اشتهدت نفسه الجبن الرومى فهل تتركه يوسخ يده؟ معاذ الله، وهذا هو تفسير الشوكة والسكينة.

وأنظر إلى هذا الذى على يديها فأتميز من الغيظ. وأكاد أطق وأنفلق، ولكنى ألمّ نفسى بجهد، وأهز رأسى، وأروح أتعجب لقدرة ربى على خلق كل هذه الأصناف من الناس. هذه امرأة لها كل ما لى — تقريباً — من الأعضاء. وليس ينقصها شيء. وهى تتكلم العامية التى نتكلمها ولا أعرف لها لغة غيرها. ومع ذلك لكل لفظ فى هذه اللغة معنى عندها غير معناه عندها. فالكبريت معناه الجبن الرومى. والكتاب معناه طاحونة البن. والكلب معناه «الخيطة والإبرة». والكمون معناه السجائر إلخ.. حتى لقد خطر لى أن الألفاظ التى تبدأ بالكاف هى التى انفردت عندها بهذا الحال المقلوب. وأنا أحصى هذه الألفاظ — إيثاراً للراحة — وأثبت معانيها إلى جانبها ليتسنى لى أن أخاطبها بلغتها فأقول لها مثلاً: «خذى اشترى لى كموناً» ويكون مرادى السجائر. أو: «هاتى كلباً وخيطى هذا الزرار» وإذا مر بالشارع الذى يصلح طواحين البن قلت: «خذى الكتاب فأصلحيه عنده» أو: «اشترى لنا كرنباً» أى بترولا ... إلخ إلخ ولكنى أخشى أن تتطور اللغة عندها وتكتسب الألفاظ كل بضعة أيام معانى جديدة فيذهب تعبى سدى.

وأه إذا مرضت ... تلازمني ولا تبرح كرسيتها إلى جانب سريري، وليتها تسكت ولكنها لا تكف عن الكلام والدعاء والتنهّد وضرب الكف بالكف. ثم ليت هذا كان كل ما تصنع فإنها تفتأ تجسني، وتلفني، وتدس اللحاف تحتي هنا، وهنا، وتسوى لي المخذة، وترفع رأسي وتحطها، وتستخبرني عن حالي ومبلغ سوئه، حتى يكاد عقلي يطير. وما دمت مقطوماً عن طعام أهل البيت وملتزمًا الحمية الموصوفة فهي صائمة، لا كصيام المسلمين من عباد الله، بل كصيام غاندى إلا عن قطرات من الماء كحسو الطائر، لبل الرقيق. وربما تعجبت لها وتساءلت: «أترى أُمى لم تكن أُمى، بل تبنتني، وهذه هي أُمى الحقيقية؟ وإذا لم يكن ذاك — وأرجو ألا يكون — فهل الأمومة عندها قوة إلى هذا الحد؟ ولكأنى بها تنظر إلى ضخامة جسمها، وذهابه طولاً وعرضاً، وضآلة جسمي وهزاله فتحنو علي، وترأمني».

وأقول قد برمت بهذا العطف «الفاحش»: «ما كان ضر أُمى لو نسيت أن توصيني بها قبل موتها؟»

ويجىء الطبيب، وهو يعرفها ويطيب له أن يعابثها، فيهل عليها بما أصابني من برد أو غيره، فتروح تبكي وتندبني، قبل الأوان سامحها الله! وينال الطبيب جزاءه أيضاً. فتأخذ بتلابيبه ولا تدعه يبرح غرفتي إلا بحيلة يحالها. ولولا ذلك لسجنته معي حتى أشفى. وكثيراً ما يقول لها: «يا ستي الحاجة الشفاء من الله، ولست إلا واسطة خير». فلا تقتنع ولا تطلق سراحه.

وأقول لامرأتى: «هاتى لي كل ما أمر الطبيب باجتنابه من الأكل». فتسأل عن السبب فأقول: «إن هذه الحاجة لا تقتنع بأنى شفيت إلا إذا أكلت ما يأكل الناس. ولن تعفيني من عطفها ما لم أفعل. فاصنعى معروفًا وأطعيني وأمرى إلى الله. وسأموت على التحقيق وسيكون دمي في عنقها ولكن ما حيلتى؟ فتضحك الزوجة وتقول: «لا تغالط. إنما تريد أن تأكل وتخالف أمر الطبيب». فأقسم بكل يمين أعرفها. ولكن من يصدق؟ حتى أنا، ينتهى الأمر بأن يساورنى الشك، أحياناً، ولى العذر

وقالت امرأتى تخاطب أصغر الشقيين: «لقد أذكرنى سؤالك حكاية سمعتها، أو قرأتها، وأنا صغيرة. قالوا إن ملكاً واسع السلطان، أسن ولم يرزق ولدًا، وكان تقياً صالحاً فدعا الله أن يرده شابًا. ونام فهتف به هاتف أن قم فكل من شجرة التفاح، فإن عليها ثمرة

الفصل الثاني

في غير أوانها. وكان له بستانى هرم هم يتوكأ على العصا، وكان يجوس خلال البستان، فبلغ الشجرة ونظر فإذا ثمرة ناضجة تتدلى فتعجب، ومد يده فقطفها، وخطر له أن يهديها إلى الملك، غير أنه راجع نفسه، واستقل الهدية وإن كانت نادرة، وقال لنفسه إن تفاحة واحدة ولو كانت في غير أوانها، لا تستحق أن ترفع إلى ملك، وليس يضيرنى أن أكلها، فلن يفتقدها أحد وهذا غير أوان التفاح، ثم إنى جوعان فما طعمت في يومى شيئاً. فأهوى عليها بأسنانه حتى أتى عليها، وعاد إلى كوخه فنام. وجاء الملك بعد قليل، فلم يجد تفاحة، ولا إيداناً بتفاحة، فلم يستغرب، وقال ما كان لى أن أتوقع غير ذلك، إن هى إلا أضغاث أحلام. وكر راجعاً إلى قصره.

وأقبل ابن البستان على الكوخ ليوقط أباه، فألفى في فراشه فتى منظرانياً فتعجب وتساءل من عساه يكون؟ وأيقظه وراح يسأله من يكون؟ وماذا جاء به؟ وماذا يصنع في كوخ أبيه؟ فقال: «أنا أبوك ... ألا تعرفنى؟» قال: «أبى؟ وكيف يمكن ان تكونه وأنت أصغر منى وأصبى؟».

وأمسكت. وجلسنا صامتين ننتظر البقية. فضحكت وقالت: «نسيت بقية الحكاية». فصاح بها الشقيان محتجين: «لا، لا، لا، يا ماما ... هذا لا يجوز ...». قالت: «فليتمها بابا».

قلت: «كيف يمكن أن أفعل وأنا ما سمعتها إلا الساعة؟» قالت، وهى تنهض عن المائدة وترفع أطباقاً: «أليست دعواك أنك واسع الخيال؟ تخيل إذن، ولا تخيب أمل ولدك ...». فنهضت مثلها، ودنوت منها، وغافلته، وقرصتها، فلولا لطف الله لتهافت الأطباق قطعاً متناثرة..

وكانت ساعة! ثم لاحت لى فرصة، ففررت إلى غرفتى، وأوصدت بابها.

الفصل الثالث

فكأنما أوصدته دون عالمى كله..

وكننت قد أشعلت سيجارة، واستلقيت على جنبى معتمداً بكوعى على المخذة، ومسنداً رأسى إلى كفى، وذهبت أفكر فى أمر هذه الزوجة الصالحة التى لا تفتأ تغرى ولدينا بالمعابثة وتشاركهما فيها. وحدثت نفسى أنهما ولدان صغيران غريزان، وإن كانا عفريتين، وأنها هى ليست إلا امرأة، والمرأة فيما تصفها الحكمة الماثورة أو الشائعة على الأقل، ينقصها العقل والدين. ولأنا خليق، بفضل السن، والتجربة، والخيال، وسعة الحيلة، والقدرة على الابتكار، أن أقهر ثلاثتهم فى هذا المعترك، وإنى لأعلم أن الكثرة تغلب الشجاعة، وأعرف أن هؤلاء الثلاثة لا تنقصهم الشجاعة، ولكنى أعرف أيضاً أن شجاعتهم هذه إن هى إلا ثمرة تدلى لهم، وطول أناتى وحلمى معهم. وإنما يتعفرتون، ويتشيطنون، ويركبون رؤوسهم بالعبث، لأنى أستملح ذلك وأحبه لهم وأوثر تفكيههم بما يطيّب به عيشهم، ويجمل الحياة والدنيا فى عيونهم، وقد أوهمهم طول مساناتى لهم، وفرط ترفقى بهم، أنهم يستطيعون أن يبذونى ويسبقونى فى هذه الحلبة، فيحسن أن أريهم «بعض» النجوم فى الظهر الأحمر ... أى نعم، أدب هين أؤدبهم إياه، يزجرهم زجراً كافياً عن طمع مسرف يطمعونه فى حلمى.

وغلبنى النعاس، وأنا أحدث نفسى بهذا. ونمت ملء جفونى على هذه النية الطبية السارة بإذن الله.

وكان النوم عميقاً هنيئاً لا حلم فيه فاستوفيت حظى منه كاملاً لا ينقص دقيقه واحدة، ثم استيقظت على نور الصباح، فتعجبت لهذه البلجة من أين جاءت، وأنا قد غلقت الشبابيك والباب قبل أن اوى إلى الفراش؟ وفركت عيني لأستثبت. ولكن الضوء الساطع كان يحوجنى إلى تغميض عيني، والمدانة بين جفونهما. على أنى ما لبثت أن فتحت عيني

جداً، فقد رأيت امرأة في مئزر أبيض، تنحى ستائر عن شباك — كاباب — عريض لا عهد لي به. فغضضت البصر وأدرت وجهي إلى الحائط، وفي ظني أن هذا حلم يتراءى لي. ومن أين بالله يمكن أن تجيء المرأة ذات المئزر الأبيض؟ ومن أين تدخل والباب موصد ومفتاحه فيه — أو لابد أن يكون فيه فما رفعته منه؟ وأنى لي هذه الستائر الرقاق الموشاة بمثل صور الطير، وليس في بيتي من الأستار إلا كل غليظ النسج قاتم اللون؟ وما هذا الشباك العريض كالباب؟ بل هو باب، وغرفتني ذات شباكين ولا باب فيها إلا ما أوصدت.

إنه حلم على التحقيق، فلننعم به ما دام. وألفيتني أدعو الله في سرى أن يجعل المرأة ذات المئزر خوذا منظرائية، فإنه ما دمنا نحلم ولا نرى حقاً فلا أقل من أن نحلم بخير. وسرعان ما استجاب الله دعائي، فليته يفعل ذلك في اليقظة — يقظتي أنا، كما لا أحتاج أن أقول فإنه — سبحانه — لا ينام — فاستدارت، فإذا هي من البيض الحسان والحواريات المسمورات، حلوة رقراقة ناعمة، ووضيئة قسيمة، مستغنية بجمالها عن كل زينة، فتبسمت لها، وقد رف لها قلبي، وهي مقبلة عليّ، تهفو كالنسيم، ولا تكاد تمس الأرض، فما كنت أسمع وقع قدميها وهي تمشي إليّ، وعلى ثغرها النضيد إبتسامة ما أحلاها وأعذبها! فلماذا يا ترى نُحرم مثل هذا في عالم الحقيقة، ونخايل به في أحلامنا، وأشفقت — وأنا أرنو إليها مغتبطاً بدنوها منى شيئاً فشيئاً، متطلعا إلا حلوات سأتذوقها مها، ولذات سأفوز بها من قربها — أقول أشفقت أن يكون مصور الحلم قد جعل لها قدمين على هيئة السمك أو ذنبه، وخفت أن تنقلب الغرفة بحيرة والسريـر زورقاً، وتذهب تسبح بنت الماء هذه، وتطالعني من هنا وهنا وتحاورني، فأحاول أن أدركها، فيضطرب الزورق في الماء وأغرق فما أحسن السباحة، أو أبتل على الأقل.

وصوبت عيني إلى الأرض فاطمأنت نفسي. فما زلنا في الغرفة. وإن للفتاة لقدمين دقيقتين جميلتين، وإن ساقيهما لمشوقتان.

واتكأت على السريـر براحتيها، ومالت، وصار محياها فوق وجهي، وبينهما شبران، أو أقل، فليتها تختصر المسافة أو تختزلها أو تمحوها! وقالت بأعذب صوت صافح أذني: «صباح الخير يا بابا..» فحيرني قولها «يا بابا»، أهو تدليل لي أو مفاكهة؟ إن كان هذا فأنا خليق أن أسر، أم هي إشارة إلى ما بيننا من فرق السن؟ إن تكن الأخرى فهي ليست من حسن الذوق على الريق. وخطر لي أنى جدير — على الحاليـن — أن أسر بأن أصبح على هذا الوجه الحسن، وراقتني، وأنا أنظر إليها — بل أحرق فيها — نفرتان عند الشدقين حفرهما الابتسام، فافترت لها كما تفتت وقلت لها أمازحها مثل مزاحها، وإنها لأولى بذلك من الحاجة!

«صباح الخير يا ماما...».

وما كدت أفعل، حتى وجمتُ، ووضعتُ يدي على فمي فما كان هذا بصوتي ولا هو يشبهه، وإن صوتي لأجش، جهير، وفيه برجمة، وغلظ، وكثيراً ما عابتنى به امرأتى وزعمته صلباً شديداً، مبالغة منها على عاداتها، عندما تمزح. وقد قالت في صفته مرة إنه «ضوضاء». أما هذا الذى سمعته من نفسى حين حييتها فصوت ناعم دقيق مع ارتفاع، كأصوات الصبيان قبل أن يبلغوا الحلم، أو أصوات البنات، فماذا جرى؟ هل أصاب حلقى شيء؟

وتحسست رقبتى، وبلعت ريقى لأستوثق، فلم أشعر أن بى شيئاً. ورأت الفتاة سهوم وجهى، وشروذ نظراتى، فأراحت كفها على كتفى وسألتنى: «مالك؟ ألسنت بخير هذا الصباح؟» فتنبّهت. ووقع فى نفسى ما فى صوتها من الحنو. وأسرعت فقلت: «نعم بخير. شكراً لك».

وارتعتُ ثانية لما سمعت هذا الصوت الجديد الناعم، وأحسب أن وجهى امتنع فقد حنت على، وراحت تمسحه لى بكفها الرخصة، وتجسه، وكاد طيب لمسها يذهلنى عن تعجبى لصوتى وإنكارى له. وسمعتها تقول: «كلا. لا شيء بك. وسأجيئك بطعامك فتهياً له»، وألقت إلى ابتسامة وانصرفت خفيفة كمر النسيم.

وجلست على السرير وقلت لنفسى: «هذه خلوة يحسن أن أقضيها فى جلاء هذا الأمر»، ورفعت يدي إلى رأسى أسوى شعرى وأسرحه بأصابعى، وإذا بيدي تقف وعينى تشخص، فإن شعرى قليل خفيف، على طوله، وقد استوى بياضه وسواده أما هذا الذى تخللته بأصابعى فكثر مجتمّع مسترسل إلى القفا، وهوت يدي إلى خدى من الدهشة، فإذا الصفحة لمساء ناعمة أسيلة، وبضة طرية لا أثر فيها لشعر نابت يحتاج إلى الموسيقى لحلقه. فأدريت أصابعى فى حذر وإشفاق من شفتى العليا فكان ما خفت أن يكون، ولم أجد شيئاً. وزاد عجبى أن أحسست فى هذه الشفة انقلاباً يسيراً واسترخاء. فدفعت الغطاء وانتفضت أريد الوثوب إلى الأرض لانظر فى المرأة وأتبين ما حلّ بى، ولكن الغطاء لم يكد يطرح وينحسر حتى جمدت مكانى. فقد ألفتنى فى ملابس الصبيان — سراويل قصير لا ساق له، وقميص مقوّر الجيب بغير كم، والجرم كله جرم حدث، لا جرم الرجل الذى أعرف أنى هو — أو أنى كنته — ودليت ساقى من فوق السرير فلم تبلغا الأرض،

فجعلت ألهزهما وأتأمل بضاضة بشرتهما، وأتعجب أين ذهب الجسم الذى كنت فيه؟ وكيف دسست فى هذا الإهاب الجديد؟ واشتقت أن أسمع صوتى فرحت أتكلم بصوت خفيض مخافة أن يدخل علىّ داخل فيستقل عقلى. واشتهيت أن أرى وجهى وصورتى فى مرآة، فإنى أرى معظم بدنى، ولا أرى وجهى وطولى وعرضى، ولكنى خفت أن يباغتنى أحد وأنا أتأمل نفسى فى المرآة وأدور امامها، فقلت أنتظر حتى أغتسل أو أغير ثيابى. فلا بد أن لى ثياباً أخرى وعسى أن تكون فى هذه الخزانة.

واستثقلت هذا الحلم، وضاق صدرى بالتحول الذى تحولته فيه، وإذا طال الحلم فستراخى السنون وتتعاقب قبل أن أبلغ مبالغ الرجال مرة أخرى، ثم ضحكت، فإن الأحلام تبدو لرائيها كالدهر طولاً فيما يحس، ولكنها لا تستغرق أكثر من ثوان أو دقائق، وفاء بى هذا الخاطر إلى حد من السكينة والرضا، فقلت إنها على كل حال رؤيا سينسخ الإصباح كل ما فيها من صور، ولا منطق للأحلام، ولاضابط، ولا ايين تجرى عليه فإنما هى خيالات تتمثل، وأضغاث كسمادير السكر، وليس بمستغرب فى حلم أن يترد المرء حدثاً ابن عشر — ترى كم بلغت؟ — ووالله لقد نسيت كيف كنت إذ أنا طفل، فلعل ما أنا فيه يجدد لى الذكرى ويحيى ما غمض، وينشر ما انطوى.

ولمحتُ الباب يفتح فاستحييت أن ترانى هذه الفتاة المليحة عارى الساقين، فأسرعت فرفعت رجليّ إلى السرير وتغطيت بالملاء وأسندت رأسى إلى شبك السرير. وكانت تحمل صينية كبيرة عليها أطباق شتى مغطاة وفنجان وإبريق وفوطة. فوضعتها على منضدة قريباً من الشباك أو الباب على الأصح ثم انثنت إلىّ وقالت: «ألا تزال فى سريرك؟ ما هذا الكسل؟ تعال».

وحنت علىّ، وطرحت الملاءة عنى، وراحت تدلك لى جسمى من فوق. فأغمضت عيني مستحلياً ذلك منها، ولكنها هوت بكفيها إلى الفخذين فدفعت يدها وتغطيت وصحت بها، وقد أنسانى الحياء ما أنكر من صوتى: «كله إلا هذا»!

قالت متعجبة: «ماذا جرى لك اليوم؟ ألسنت أفعل هذا كل يوم تقريباً؟ كل يوم..؟ إن هذا الحلم أطول مما أعرف! فما أغربه من حلم مقتضب يبدأ من نصفه؟ وهل ترى اسمى فيه بقى كما أعرفه أو تغير هذا أيضاً؟ وهل ترانى أجروّ على الاستفسار؟

أم ستتاح لى فرصة فأعرفه بلا سؤال؟
وسمعتها تقول: «مالك لا تعجب؟ إنك اليوم متغير».

فقلت فى سرى: «لو عرفت لعذرتنى». ثم لها: «لأحاجة بى إلى التذليك. ثم إنه غير لائق».

فاستضحكت ثم قالت: «غير لائق؟ هذا جديد ... هذا ممتع».

قلت: «ممتع أو غير ممتع، سيان. لا أريده والسلام».

فهزت رأسها وقالت: «إنك لطفل غريب. لا ينقضى منك عجبى، طيب. قم إلى طعامك».

فسألتها: «ألا أغتسل أولاً؟»

قالت: «طبعًا. تعال».

وتقدمتنى إلى باب لم أظن إليه من قبل، يفتح على حمام، ورأيتها تسبقنى إليه فناديتها فخرجت إلىّ فما أسرع ما اندفعت داخلا وأغلقت الباب ورائى.

ورأيت فى الحمام مرآة فوق الحوض، إلا أنها عالية لا ترينى إلا وجهى وصدرى. ولم يخطئ ظنى. فقد كان الوجه صابحًا والشعر شعر حدث، ولكنه لم يعجبنى، فقد كان — أى وجهى — كأنه منتفخ الصفحتين، وكانت الشفتان شديتى الحمرة وعليهما منقلبة قليلا قليلا كما ظننت، حيث ينبت الشارب، على أنى حمدت للذى صورنى هذه الصورة أنه لم يجعلنى أشرم.

ونظرت بعد ذلك إلى ألوان الطعام ثم إليها وسألتها: «ألا تشاركينى؟»

فابتسمت، وشكرتنى وقالت إنه طعامى وحدى.

فقلت: «كل هذا لى؟ أتعنين أنك تتوقعين أن أحشو معدتى وأكظها بكل هذا؟ إذن

سأمرض بلا شك».

قالت: «كلام فارغ، إنك أكل مبطان، أو تحسب أنى لا أعرف ماذا تلتهم فى نهارك

بين الوجبات من شكولاته، وفول سودانى، وحمص وغير ذلك؟ كل وأنت ساكت، ولا

تتظاهر بهذه الزهادة، فلولا شفقتى عليك لأخبرت أمك».

قلت فى سرى: «ولى أم أيضاً.. ترى كيف هى؟» ثم للفتاة: «ولكن.. زبدة وجبن وبيض

مقلو مع اللحم المتمر، وقشدة، وعسل، ولبن وشاى، وهذا. ما هذا؟ آه خبز مكسر على

السمن. فماذا تظننى بالله؟ غولا.. ألا تعرفين أن «الغازات» تسود عيشى؟ فكيف آكل هذا

وآمن فورتها وسورتها؟»

ونسيت وأنا أقول هذا أن الذى ردى طفلا، وكّر بى راجعا كل هذا الزمن لابد أن

يكون قد غنى بأن يضع لى مكان معدتى العتيقة، معدة جديدة شابة. فما يعقل أن يكون

هذا قد فاته، وإلا صار ما صنعه بى تخليطاً لا يستقيم معه الأمر.

وقالت الفتاة: ألا ليت أحداً يناديها باسمها فأعرفه فقد أحتاج إليه، ثم ليبتها تدعوني باسمي لأعرف من أنا؟: «ما هذا الكلام الذى تقول؟ إنه أشبه بالهذيان. سم بالله وكل». فأطعت. وهل كان لى معدى عن الصبر؟ وجعلت فى أول الأمر أتناول بحذر وتقية، وآكل على مهل وبحساب، وأمضغ مضغاً طويلاً مستأنثاً فيه، ثم أحسست وأنا ألوک أن رغبتى تشتد، وشهوئى تقوى، فعكفت على الطعام عكوف المنهوم الرّغيب الذى لا تنتهى نفسه ولا تمتلئ عينه، وما هى إلا لحظة حتى كنت قد قششت كل ما أمامى. ثم اضطجعت وربت على بطنى وحدثت نفسى أن أملئ لم يخب فيمن صنع بي هذا، فليتنى أعرف حيلة أستبقى بها هذه المعدة لما بعد اليقظة.

وتذكرت قول ابن الرومى:

«ذى معدة ثعلبها لاحس وتارة أرنبها ضاغب
تعلوه حمى شره نافض لكن حمى هضمه صالب»

وتمنيت، وقد آتانى هذه المعدة الفتية، أن لو كان آتانى أيضاً عقل حدث. وأحسبه نسى أن يغير لى نفسى كما غير لى جسمى، على أنى ما أظن إلا أنه لو كان فعل لما فطنت إلى أنى تغيرت.

وسمعت فتاتنا تقول: «هنيئاً مريئاً يا بابا».

قلت؟ «شكراً».

ووددت لو نسيت «بابا» وذكرت اسمى..

وخطر لى أن خادمتنا الحاجة لعلها صغرت مثلى!

الفصل الرابع

وخرجت في الشباك العريض — أو الباب — بعد أن أعطيت ثياباً أخرى أردتها — إلى شرفة رحبية تصلح للعب وتتسع لفنون منه، وتطل على بستان زهر وثمر، تخترقه طرق ممهدة وبعضها مفروش بدقاق الحصى المصفرّ، وفي أرجائها المترامية ظلال من الحرور، وأكنان من القر، وبين الأفنان فواكه شتى، رأيت فمى يتحلب عليها فيتلمظ لسانى وشفطائى، وإن كنت ناهضاً عن المائدة الساعة.

واشتهيت، وأنا واقف أجيل عيني في هذه الحديقة، أن تكون بين أصابعى سيجارة وأمامى فنجان من القهوة، فأترشف وأدخن وأنعم، وأنى لى ذلك إلا بحيلة أحتالها؟ واتكأت على حافة الشرفة وذهبت أفكر فى أمرى، وتساءلت: «ترى ماذا صنع الله بإهابى الذى كنت فيه؟ بالجسم الذى كان لى؟» وقلت فى جواب ذلك: «إنى أحسبه ما زال مطروحاً على سريريه. وفزعت ان خطر لى أنهم لعلهم وجدوه فى الصباح لا حياة فيه ولا حراك به — بعد أن خرجت منه ونضوته عنى — وما يدرينى أنهم حينئذ لا يعدونه ميتاً فيدفن؟ إن هذه تكون إحدى المصائب الكبر، لأنه يقضى علىّ أن أظل فى هذا الإهاب الصبباني وينتسخ كل أمل فى إصلاح هذا الحال المقلوب.

وجرى ببالى أن لعل هذا هو تناسخ الأرواح الذى سمعت أن البعض قالوا أو يقولون به. ولكن التناسخ لا يجرى على هذا النحو، ولا يكون — أو لا ينبغى أن يكون — بنقل نفس حية من جسم إلى جسم آخر، فيه هو أيضاً حية تُطرد منه، ويتطلب طردها إحلالها محل ثلاثة تُنفى هى كذلك إلى جسم رابع وهكذا وليس لهذا آخر يقف عنده وينتهى إليه، ومؤداه القوضى العميمة. وما ظنك بحال عالم يسمى ناسه وهم هم، ثم يصبحون وهم غيرهم؟ ولا خير فى هذا لأنه لا يعدو أن يكون مجرد تنقيل من أجسام. وإنما يحصل التناسخ بعد موت الجسم، وأنا لم أمت. أو من يدرى؟ لعلى مت، وانتقلت

روحي أو نفسي إلى جسم هذا الصبي! ولكنى لم أولد معه، بل حلت في بدنه فجأة في بعض مراحل عمره، وليس هذا بجائز فيما أرى.

ونشف ريقى وأنا أفكر في هذا ولا أهتدى. وتصببت عرقاً. وحرك النسيم الأغصان فتنبهت إلى أن ههنا — تحت أنفى — شجرة عظيمة زاهية في الهواء، وفي وسعى بلا مشقة أن أتخطى الحافة إليها وأتدلى منها إلى الأرض، واستغربت أن يخطر لى خاطر هذا العبث الصبباني، وماذا أصنع إذا لقيت من لا أعرف؟ وقد يبتدرنى بسؤال عن شيء أو أحد أو عن نفسي، أو يدخل معى في حديث يتناول ما أجهل. كلا ... الخير أن أبقى حيث أنا، وأن أدع من شاء يصنع بى ما يشاء حتى أهتدى إلى نفسي.

وأقبلت الخادمة — أعنى الفتاة المليحة — مرة أخرى، فسألتها: «في آى يوم نحن؟». فابتسمت وهزت سبابتها في وجهى وقالت: «تنباله؟ يا مكار».

فحدثت نفسي أنى لن أهتدى إلى شيء في هذه الحياة الجديدة إذا ظل كل من ألقى يفترض أنى أعرف ما أجهل.

وقلت أستدرجها: «إنما أريد أن أستوثق».

قالت: «لا محل للشك. هو اليوم العظيم ولا كلام».

قلت: «بل شكى عظيم. ويخيل إلى أن هناك خطأ كبيراً».

قالت، وهزت رأسها: «آه، فهمت، ولك العذر إذا اختلج في نفسك شك، فإنك ما زلت صغيراً، وصحيح أن اليوم قد يختلف فيكون السبت مرة، والجمعة مرة، ولكن التاريخ ثابت، وهو الذى عليه المعول».

فقلت لنفسي: «هذه فرصة فلأغتنمها»، ثم لها: «مهلاً. أرجو أن تزيد هذا إيضاحاً، فإن الأمر مختلط على قليلاً».

قالت: «حباً وكرامة. اليوم الجمعة، مثلاً».

فلم يعجبني قولها «مثلاً» لأنه يتركنى حيث كنت، حائرًا لا أدرى، وضالاً فقاطعتها سائلاً: «مثلاً أو هو يوم الجمعة فعلاً؟ يجب أن يكون كل شيء واضحاً بدقة».

قالت: «هو الجمعة فعلاً».

فقلت في نفسي: «إنى لا أستغرب أن يحيق بى هذا في يوم جمعة، فالآن آمنت بزعم العامة أن في يوم الجمعة ساعة منحوسة، ولكنى نقلت هذه النقلة ليلاً لا نهاراً؟ وما الفرق؟ إن الجمعة تبدأ بالحساب القمري من مغرب الخميس، فليلتها السوداء تبدأ حيث ينتهى نهار الخميس. وهى بالحساب الشمسى تبدأ بعد منتصف الليل، فهى الجمعة المنحوسة بنهارها وليلها على الحسابين جميعاً».

الفصل الرابع

وفاتنى وأنا أفكر فى هذا، بعض ما هى قائلة، فقرضت أسنانى من الغيظ، والسخط على نفسى، وقلت: «معذرة. ماذا كنت تقولين»؟
فزوت وجهها وتناولت كتفى وسألتنى: «ماذا جرى لك اليوم؟ واليوم على الخصوص؟ إنى خائفة...».

فقلت مقاطعاً: «على الخصوص؟ وما وجه هذا الخصوص؟»
فسألتنى، وهى مقطبة مضطربة: «أو نسيت هذا أيضاً؟»
قلت، وأنا أتكلف السخر: «وما فضله على الأيام؟»
قالت، وضربت كفّاً بكف: «فضله؟ عيد ميلادك تتكلم عنه بهذه اللهجة؟»
ففهمت — هذا على الأقل — وقلت: «آه! تعنين «يوم» ميلادى الجديد؟»
قالت: «أيوه عيد ميلادك ... أعنى يوم عيد ميلادك ... أوه لقد أعديتنى فأنا أتكلم مثلك».

قلت: «الصواب أنه «يوم» ميلادى الجديد...».
قالت: «هو كذلك. يوم ميلادك الجديد».
قلت: «إنك غير فاهمة — ولا أنا أيضاً فاهم إذا أردت الحقيقة».
قالت: «ماذا؟»
قلت: «لا شىء.. لا شىء. ولن تفهمى إذا قلت. فدعى عنك هذا. وهاتى أنت ما عندك».
قالت: «مالك تتكلم كأنك شيخ كبير، وأنت ما جاوزت العاشرة؟»
فحدثت نفسى أن هذا شىء آخر جديد عرفناه، وقد بقى أن نعرف من أنا. ومن هؤلاء ممن أرى ومن لا أرى، وقلت لها: «هذا إحساسى ... أنى شيخ ... أنى كبير، وإن كنت أبدو كما ترين غلاماً صغيراً».

قالت: «كيف تقول هذا والدمر كله، مستقبلك كله، لا يزال أمامك؟»
قلت: «إلى البارحة فقط كنت قد خلفت ورائى شبابى، وفى هذا الصباح، أو فى الليل فما أدرى، دار الزمن — بى وحدى على ما يظهر — دورة انقلب معها الحال فصار قدامى ما كان ورائى، ماذا كنت أنت أمس؟ طفلة؟ امرأة عجوزاً؟ الحاجة زكية؟»
فلمست جبينى بكفها وسألتنى: هل أنت مريض؟
أتشعر بشىء على خلاف العادة؟

فقلت — برغمى، وإن كنت أدرك أن هذا عبث لا طائل تحته، وقد يجر على ما لا أحمد: «نعم أشعر، وأعرف، يقيناً، أن كل شىء على خلاف العادة، ولكنى لست مريضاً. أوه. ما الفائدة؟ لن تفهمى. ولن تصدقنى إذا فهمت...».

وأوليتها ظهري، واتجهت إلى الباب، فلما بلغته سألتها: «هل أظل محبوباً في الغرفة والشرفة؟»

فأسرعت إليّ، وقالت: «أنا متعجبة وخائفة، فليست هذه عادتك».

فلم أرحمها وقلت: «إن كل ما اعتدته تغير — كل شيء تغير — صدقيني وإن لم تفهمي، وقولي لي ماذا ينبغي أن أصنع الآن؟»

قالت: «أرجو إذا نزلت إلى ماما أن لا تتكلم هكذا فإنه لن يسرها، وفي يوم عيدك على الخصوص ... ليتني أعرف ما بك؟»

فرق لها قلبي، وهممت أن أقبلها شكرًا لها على عطفها، واندفعت يداي تريدان تطويقها، ولكنني صددت نفسي مستحيًا. وإنني لغلام صغير فيما ترى، ولكن إحساسي إحساس رجل، وطاف برأسي أن هذه فرصة لي، إذا شئت اغتنمتها فلن تردني عن عناقتها وتقبيلاها، فما تدري إلا أنني طفل، ويغتم الرجل الذي انطوى عليه، والذي تنكر في زى غلام، حلاوة القبله ومتعتها. ولكنني صرفت نفسي عما يغريها بذلك، وقلت لها فيما قلت: إنها قد تحنو عليّ، ويعطفها ما يعطف المرأة على الصغار، وقد تحتل ثقل تقبيلي لها وتعلقى بعنقها، لأنني صغير يُلاطف، وقد يسر الأم الكامنة في نفسها أن يلاعبها طفل، ولكنها لن تستحل القبله أو تستطيبها وتستمتع بها إلا من رجل، وما خير قبله لا تبادلنيها؟ وأنفت أيضاً أن أخدعها، وإن كان ما تحولت إليه ليس من فعلي أو تدبيري. وقلت لها: «ألا ترافقيني إلى حيث ماما؟» فابتسمت وقالت: «كأنك لا تعرف طريقك ... إن كل أحوالك اليوم غريبة. كلا. لا أستطيع مرافقتك. فإن عملي هنا، وهو كثير، كما تعلم».

فتوكلت على الله، فما بقيت لي حيلة إلا أن أقذف بنفسي على المجهول.

الفصل الخامس

ورأيت سلمًا عريضًا درابزونه من الخشب المصقول، ودرجاته مكسوة ببساط، فقلت في نفسي: إن هذا قصر على ما يظهر. فلماذا يا تري آثروا لأرض غرفتي العرى وقد كسوا السلم؟ وهبطت على مهل، درجة درجة، ونفسي تحدثني أن أركب الدرابزون فأنزل عليه! وكنت لا أنفك أتلقت في كل ناحية، ولكني لم ألق أحدًا، فاستوحشت من هذا السكون، ولما بلغت آخر درجة نظرت فإذا أمامي بهو أوسع من دهليز، وفيه مقاعد قليلة، وعلى جدرانه صور شمسية لم أستبعد أن تكون لبعض «أهلي» فصعدت طرفي إليها ولكنها كانت عالية، والبهو مظلم. وأبصرت بابًا مواربًا إلى يساري فنظرت منه ولم تكن بي حاجة إلى انحناء فإن قامتي الجديدة ليست مديدة، وأنا لا أنظر من ثقب المفتاح بل من فرجة الباب الموارب، ومع ذلك انحنيت كأني ما زلت أنا. وأنسيت أني قد صرت هذا الذى لا أعرف من هو، فأخذت عيني سيدة كدت أهاجم عليها حين وقع عليها بصرى فقد كانت هى زوجتى بعينها، ولكن شيئًا فى جلستها، وهيئتها، وثيابها، ردى وكبحنى عن الاندفاع، فقد كانت إحدى ساقىها ملتفة بالأخرى، ولا أعرف زوجتى تفعل ذلك، وكانت فى حجرها كرة من الخيط وفى يديها مسلتان تنسج بهما الخيط، مداولة، على مقدار، وامراتى لا ترى أن تشتغل بهذا عن معايشتى. وهذه ثوبها معرج وبين خطوطه الملتوية ترابيع بيض وحمرة، وامراتى تؤثر ما لا وشى فيه ولا تخطيط. وهذه شعرها فينان مفروق من الوسط ومرسل إلى الخلف، وفى شعر امرأتى شئ من التحجج. وهى ترفعه فوق الجبين وتلويه، وتثبته بما يمسه.

وخطر لى أن لعل هذه هى «ماما» وخفت أن لا تكون، وحررت ماذا أصنع وكيف أخطبها — وأخيرًا وبعد تردد، قلت الرأى أن أدبذ وأحدث صوتًا وضجة، حتى إذا التفت وتكلمت رجوت أن أعرف من تكون، والله المعين

وخطبت الباب، ودبدبت، وتقلبت أيضاً — على البساط الوثير — وما كان ظنى أن أحسن هذا، ولا كنت أنويه أو أفكر فيه، ولكنى دفعت إليه دفعا، وأغرتنى به وزينته لى فيما أظن طبيعة هذا الجسم الصبيانى. فلما عاد رأسى إلى مكانه، واستقرت قدماى مرة أخرى على البساط، رأيت هذه التى ما شككت أنها امرأتى تنظر إلى راضية مغتبطة — وسمعتها تقول: «آه. سونه. عيد سعيد يا سونه. تعال هات بوسه».

فقلت لنفسى وأنا أخطو إليها وأمط بوزى، وأدانى ما بين جفونى، وأهز ساعدى هزاً قوياً: «إن اسمك يا هذا «سونه» وقد عرفناه، أو عرفنا ما يكفى. وقد يكون الاسم الكامل «حسونه» أو «حسنى» أو «محسن» أو «حسن» أو «حسين» أو غير ذلك مما يمكن أن يتألف من الحاء والسين والنون. أو من يدرى؟ فقد لا تكون فيه حاء، ولكن شيئاً خير من لا شيء. ولست أتوقع أن ألقى كتباً بالبريد، وإن كان هذا محتملاً فى يوم عيدى السعيد، ولكنى أحسبهم سيجمعون ما يرد من التهنئات — إذا ورد شيء — ويحملونه إلى جملة، فلا خوف إذن. وسنعرف ما نجهل متى آن الأوان».

ولما صرت على أشبار منها نططت فإذا أنا فى حجرها، وذراعى حول عنقها وفمى على خدها، فقبلت رأسى، وما بين عيني، وخدى، وقرصت وجنتى قرص مداعبة لا قرص إيجاع (وقد أسلفت أنهما منتفختان قليلا، فهما يغريان بالقرص) ثم عاودنى الحياء فنهضت ومشيت مطرقاً إلى مقعد كبير منجد، فانحططت عليه وذهبت أحرك ساقى وأحك بقدمي ما يليهما من البساط وذراعى على المسندين.

و قالت، ويداها لا تكفان عن النسج: «سيتغدى عمك معنا وقد سبقته هديته إليك». فهممت أن أشيل نفسى عن المقعد. فأشارت إلى تردنى عن ذلك وقالت: «لا تعجل — فى المساء بعد اكتمال الجمع، نفتح الهدايا ... تعلّم الصبر ...».

وكان لابد أن أقول شيئاً فسألتها: «ولكن ألا يمكن أن أعرف الهدية ما هى؟ باللسان فقط».

قالت: «إن الله مع الصابرين. كل شيء فى وقته».

فأسلمت أمرى إلى الله، وهزرت رأسى وكتفى، وقمت فسألتنى: «إلى أين؟»
قلت: «سأتمشى فى الحديقة».

قالت: «لا توسخ ثيابك ... ليس فى هذا اليوم».

فقلت فى نفسى: «يا له من يوم!»

أتعرف ذلك الصندوق الذى يضعه بعضهم لبريده على بابه وفى أسفله رقعتان كتب على إحداهما «موجود» وعلى الأخرى «غير موجود» ولا تبدو واحدة إلا بحجب الأخرى؟

كان هذا حالى فيما أحس. فأنا تارة أفكر بعقلى القديم الذى كان لى فى صورتى السابقة، وأصدر فيما أعمل عن وحيه، ثم يُنَحَّى هذا العقل، أو يُطرح فى زاوية أو ركن، أو يحجبه حاجب، ويظهر العقل الجديد الذى يلائم حال الطفولة التى رُدْتُ إليها، وهكذا دواليك. وهذه السيدة التى رأيتهما جالسة تنسج، بدت لى فى أول الأمر زوجة، فدار فى نفسى لها ما يدور فى نفس الرجل لامرأته، ثم إذا بشئ يحجب هذه الناحية من إدراكى، أو يغلق طاقة، ويفتح أخرى، فأرتد غلامًا ينط ويلعب، ويرتمى على حجر السيدة، ويكون معها كما يكون الولد مع أمه، ويفرح بلعبة أو هدية، ولا يطيق الصبر على تركها إلى المساء.

ولم أكد أقول إنى خارج إلى الحديقة حتى عاد عقلى القديم موجودًا. فرحت أفكر فى المخرج وأحاذر أن تبدو على الحيرة، وأتظاهر بأنى أتلکأ وأنا أجوب الحجرات، وأفتح بابًا وأغلق بابًا، حتى وفقنى الله. وكان الخدم كثيرين — رجالا ونساء — ولا عجب أن يكثرُوا فى بيت طويل عريض كهذا، ولكن العجب أن تطيق العيش فيه هذه السيدة المزدوجة الشخصية التى أراها تارة أمًّا وتارة زوجة، وهى مستفردة فيه ولا أنيس ولا جليس من إنسان أو كلب، ولكن عجبى لم يطل، فإن الأوضاع كلها مقلوبة. وانطلقت أفكر وأنا أتمشى فى الحديقة، وأعجب تارة بألوان الزهر على أغصانه، وأنزع غلاته طورًا وأفركها بأصابعى ولا أبالى جمالها ولا أرحم رقتها — أقول إنى ذهبت أفكر فى هذه الحادثة التى يقول الكبار — وأنا منهم — إنها أحلى وأسعد وأرغد أيام الحياة، ومع ذلك أرانى ناسيًا كيف كنت إذ أنا صبى، وماذا بلغ من استمتاعى بذلك الرغد الذى نتحسر عليه، بل أنا قد قضيت معظم الساعة أو الساعتين اللتين عدت فيهما حدثًا فى استئقال هذه الطفولة والضجر منها والتبرم بها. أم ترى ذاك لأنى لست طفلًا صرفًا؟

وهذا العم الذى سيشق الأرض ويخرج لى من جوفها، كالجنى، كيف هو يا ترى؟ قد عرفت الأم وأحسست لها فى قلبى رقة لأنها تشبه زوجتى (التي لا يخلو قلبى من المودة عليها لكثرة معاينتها لى وحضها الولدين الشقيين على كيدى) وبقي أن نعرف العم الذى لم يكن لنا فى حساب. أطويل هو أم قصير؟ وثقيل أم خفيف ظريف؟ ووددت لو أن أمى أرتنى هديته لأعرف ذوقه ورأيه فى ابن أخيه، من اختياره.

وإنى لأدفع حصاة برجلى، وإذا بصوت يقول: «هش ...» فالتفت إلي مصدره فإذا رجل فى سراويل إلى نصف الفخذ كالتى يلبسها لاعب الكرة أو المصارعون، وتكتها طويلة

غليظة كحبل الشراع إلا أنها ملونة، وطرفاها يتدليان من عقدتهما إلى قريب من الركبة، وعلى صدره قميص أو قطعة منه، وفوق رأسه قبعة قديمة، وقدماه في حذاءين باليين عليهما طوائف شتى من الاحوال جف بعضها وما زالت بقيتها طرية، فأدركت أنه البستاني أو بعض أعوانه، فما يقوم على خدمة هذه الحديقة الواسعة الحافلة بصنوف الزهر والشجر رجل واحد.

واقتربت منه فقال: «سمعت أن البك مشرفنا اليوم».

قلت: «البك»؟

قال: «البك عمك».

قلت: «آه».

قال مستفسراً، وفي عينيه التماع خبيث: «العادة يا سعادة؟ فلم أفهم، ولى العذر، وبدا لى أن خير ما أصنع هو أن أوافقه، وليكن ما شاء الله أن يكون، وهزرت له رأسى أن «نعم» وتبسمت. فقال: «عال. قبل الظهر تكون الأمانة تحت السرير».

فشكرته ووددت لو كان معى مال لأنفخه منه بشيء، وتساءلت فى سرى: «أليس لى «اعتماد» مفتوح فى ميزانية هذا القصر أنفق منه كغيرى من الغلمان — مصروف لجيبى كما يسمونه»؟

ورأيته يتراجع فى حذر ويتوارى وراء جذع شجرة كالقطة أبصرت كلباً يذلف إليها فتلفت إلى حيث كانت عينه تنظر، فإذا الفتاة الخادمة، فلم أكرث لها وهممت أن أمضى فى طريقى، وخطر لى أن ليبتها ترافقنى فإنها جميلة وضاءة المحيا، وخليق بالتزهر معها فى هذه الحديقة أن يفيد الرجل المضمر فى هذا الالهاب الصبيانى، متعة.

ولكنها لم ترافقنى بل دعتنى إليها بإشارة من كفها، فذهبت إليها أعدو فانحنى على وقالت بصوت كالهمس: «لقد رأتك ماما من الشباك واقفاً مع «عم أحمد» الجنائنى فكلفتنى أن أقول لك إنه لا يليق بك أن تحادث مثله».

فدهش شقى المستور وسألها بلسان الغلام: «وما عيبه؟ أليس من خلق الله مثلى ومثلك؟ ما هذه الغطرسه»؟

فباستنى خطفاً كما يشرب الطائر، يحسو حسوة ويرفع منقاره — أو رأسه الصغير — ويتلفت كأنما يخاف عواقب الطمع أو مطاوعة النفس، فقلت فى سرى لابد أن تكون هذه الأيام التى استظرفتها، ثقيلة غليظة الكبد، ومتنطعة سخيفة الرأى.

وأحسب أن وجهى ارتسم عليه ما يضطرب به صدرى فقد قالت الفتاة: «إنما تخشى أن توسخ ثيابك فى يوم عيدك. ثم إن ماما هى ماما ويجب أن نطيعها».

فقلت: «لا تعتذرى عنها، وقولى لها إنى سأكلم وأخالط من أشاء.. بل قولى لها إنى سأتمرغ فى التراب، وأتقلب فى الوحل، وأجرح جلدى بالشوك وأمزقه. ولتفعل ما بدا لها». وانكفأت عنها أعدو فى الحديقة، وتمنيت لو أن فى وسعى أن أسلخ هذا الجلد كله كما تُسلخ الشاة. واستثقلت هذه الطفولة التى تحاط من كل ناحية بالسدود والحواجز، والعقل والموانع، كأنما لا يكفيها أن لها من طبيعتها حدودًا، ولا يسمع فيها من يُقضى عليه بها إلا «إياك» و«حاذر». وآليت لأؤدبن هذه الأم غير هذا الأدب.. أو تظننى طفلاً حقيقياً؟ سنرى ونريها..

ودرت أبحث عن «عم أحمد» الجنائنى وأستعجله ما وعد، فقد كبر فى ظنى أن يكون ما وعدنيه وسيلة لركوب العم المنتظر — البك. فقد صار لنا بك من الأعمام — بشيء من العبث، وحدثت نفسى أن هذه الأم — إلى الآن — أولى، ولا مانع فيما أرجو من قسمة الأمر بينهما نصفين.

ولكنى لم أجد الرجل، فقد شق الأرض وغاب فيها، كما شقها وبرز منها

الفصل السادس

وأخيراً جاء العم. وتلقيت قبلاته، وراك الله السوء! وهو شيء كل ما فيه ثقل، تنفسه حشجة، وصوته ضوضاء، وضحكه قرقرة، وقبلته كمص الماء من كوز نصفان، وكرشه برج دبابة، وشعرات شاربيه فتلات حبل مقروضة، وعينه — والعياذ بالله — شفر متفتل، وجفن محمر لا هدب له، وماء يسيل، وحاجباه شعرهما رقيق من آخر وكثيف من قُدم، وأذنه مسترخية من رأسها ومنكسرة على وجهها كأذن الكلب، ورأسه على شكل البيضة، وقد ذهب أكثر شعره، وبقيت له طرة شعراتها متفرقة صلبة كأنها الشوك.

وما كدت أراه حتى قلت: بل هو أولى بكل ما يهيئ له هذا الجنائني الطيب العم أحمد ... قواه الله ووفقه! وتمنيت أن يجيئني بثعبانين أو ثلاثة، أدس منها اثنين في كمي، أعنى عمي، وألف الثالث حول عنقه الغليظ المقبل إلى صدره المنتفخ. وكان يابى إلا أن يجلسنى على ركبته، ولا أكاد أفعل حتى تدفعنى كرشه وتدحرجنى، فيقهقه ويطحطخ، فيبج، ويسعل سعالاً مشقوق الصوت، ويسيل لعابه على ذقنه، ويمسك جنبيه بيديه، كأنما يجد فيهما وخزاً، ولا يخطر له أن يخرج منديلاً يستر به هذا الفم الأفوه الذى كأنه باب كهف، وما فيه من لثة ذابلة، وأسنان مسودة، سفلاها خارجة من الحنك وعليها متقاعسة.

وكننت شديد الشوق إلى تلقى ما وعدنى العم أحمد، والتلهف عليه، فأنا لا أستقر، ولا أسكن، ولا أزال أنفى من هذا العم الذى رميت به من حيث لا أحتسب. وأمى تدعونى بغمز العين أو إشارة اليد إلى المراضاة، فلا يزيدنى هذا إلا تقطباً، وجفوة وسوء خلق، وهو لا يفطن إلى ما بى منه أو لا يحفله. ولا يكف عن «ملاطفتى» وممازحتى، ممازحة الفيل للقط، كأنه موكل برياضتى على احتمال المكاره!

وبعد لأى ما استطعت أن أفر من هذه الغرفة. فأسرعت إلى غرفتي، وأطلت على الحديقة من الشرفة فلم أجد أحداً، وخفت إذا أنا بقيت هنا، أن يصعد العم إلى. فيفسد التدبير كله ويحبط، فعدت من حيث أتيت، وجعلت أمشى على أطراف أصابعى وفى مرجوى أن يكون قد غلبه النعاس فأنجو إلى حين، فإن مثله، فى مثل ضخامته، ينام ولو كان على ظهر فرس جامح.

وبلغت الباب. ولم يكن مفتوحاً كل الفتح. فاستوقفنى ما سمعت. فبقيت حيث أنا أتسمع. فسمعت أمى تقول: «إنه عنيد مثل ...».

وسمعت عمى يقول: «قولها ... مثل أبيه ... تماماً. ولكن المسألة أننا جميعاً، وأنا وأنت فى الطليعة، نخضع لسلطانته كأنه ملك ذو صولجان، حتى فى حياة أبيه، وأيام كان لا يزال رضيعاً، كانت جباهنا تعنو لأصابعه الصغيرة التى يطبقها على شاربى ويشد هاهاها».

فقالت أمى وهى تتنهد: «تاللة ما كان أحلى هذه الأصابع الحمراء ... وأحسب أنا قد دللناه وأفسدناه».

فقال: «من المسئول عن ذلك؟ هه؟ من الذى كان يغضى عن كل ما يفعل؟ من التى كانت إذا رأتنى أنهره وأزجره تدور من ورائى وتحمل إليه ملء سلة كبيرة من الحلوى والفواكه؟»

فصاحت به أمى: «أنت كنت تنهره؟ أنت؟ صحيح، ولكن بصوت رقيق، لين. كما يناغى ذكر الحمام أنثاه، وإذا رأيته يبكى زويت وجهك وعبست جاهداً لتخفى الدموع التى تترقرق فى عينك، ثم تحمله وتوسعه تقبيلًا».

فاستغربت أن ينطوى هذا الفيل الضخم على كل هذه الرقة، ولكنى ما عرفته إلا اليوم فى العذر واضحاً، وماذا تقول العامة؟ من لا يعرفك فهو يجهلك، صدقوا والله ... وسرنى أن يكون فى هذه الكرش العظيمة شىء غير المعدة والأحشاء. وصارت المسألة عندى هى: هل أمضى فيما انتويت من معابثته بمعاونة عم أحمد الجنائنى بما لا أعمل؟ وزهدنى فى ذلك أن قلبه كبير، وأغرانى به طمعى الجديد فى حلمه وحبه. وخيل إلى وأنا بين هذه الدوافع والجواذب، كأنى مشدود إلى حصانين يجريان فى اتجاهين مختلفين، وأحسست كأن ساعة انقضت فى هذا التردد، وأشفت أن يضيع الوقت سدى، فتقلت الفرصة وتذهب إلى غير رجعة، وتأدى إلى صوت هذا العم الفاضل الطيب يقول: «إنك تعلمين يا فيفى ما أنطوى عليه لك من زمان طويل ...» فقلت فى سرى — وأذنى مع

ذلك مرهفة للتسمع — آه لقد عرفنا اسمك يا ماما! لم يسعنى إلا أن أتعجب لأهل هذا البيت الرحيب الذى يتسع «للتكبير» إلى أقصى حد وأبعد مدى، لماذا يحتاجون أن يلجأوا إلى «التصغير» فيه؟ فأنا «سونه» والله أعلم بالأصل المستكثر على. وأمى «فيفى» ولست أستغرب أن يكون ما يُدعى به الآخرون ممن رأيت ومن لم أر «توتر» و«لولو» و«توچه» و«كوكو» ... وتذكرت بيتا نزلت فيه ضيقاً — قبل أن أصغر — مع ستة غيرى من الإخوان. وكان صاحبه ممن لا يحتاج ابن الرومى أن يتعجب لهم كيف أخطأهم الجسم، فأرقدنا فى حجرة كالهيكمل، رص لنا فيها سبعة أسرة غير الخزانات والمناضد والكراسى، كانت تبدو لنا مع ذلك فارغة. وكان الواحد منا يستطيع أن ينام على سرير طولا أو عرضاً كما يشاء من فرط سعته. وأصبحت فقصت إلى الحمام فإذا هو يصلح أن يكون ميداناً للركض أو ساحة للرقص. ولما صرت فى الحوض خيل إلى أنه حوض سباحة، وأنى فيه سمكة من «البساريا» فى مجرى النيل العظيم، وأشفت أن أغرق، وصحت أطلب النجدة، وتوقعت أن يجيء مضيفى بدلو عظيمة يلقي بها إلى، فأصعد فيها، أو يدلى لى حبلاً أشد به وسطى ويرفعنى فأخرج إلى الشط. وقلت لمضيفى لما نجوت: «لم لا تؤجر هذا الحوض للأسطول البريطانى فيتخذة قاعدة له؟» على أن هذا كان منى ظلماً له، فما عدا الرجل أن شيد بيته وفصله على قده. فلا وجه للوم أو السخرية.

وهنا تجرى الأمور على نقيض ما ينبغى. فيصغرون الكبير حتى ليمسخون الرجل ذا الشاربين المفتولين واللحية الكثة التى يضنيه حلقتها كل صباح، فيجعلون منه غلاماً أمرد

وصرفنى عن الاسترسال فى هذه الخواطر كلام آخر سمعته كان له وقع اللطمة القوية، فقد كان العم يقول: «وما قولك فى أن نجعل هذا العيد مزدوجاً؟ إنك تعلمين أنى أنا وأخى عليه رحمة الله أحببناك وتنافسنا عليك. وقد آثرتة على واخترتة دونى، فنزلت على حكمك، وكنت على حق. فإنه كان خيراً منى. ثم اختاره الله إلى جواره ... فأكرمك ونزهتك عن الالاحاح عليك بحبى لك. وتركت لك هذه المهلة الطويلة — سبع سنوات كاملة — وأحسب أن فى سبع سنوات من الترمل الكفاية. ثم إن سونه يحتاج إلى عنايتنا ورعايتنا وتعهدهنا معاً، وأنت وحدك لا تقدرين على شيء ...».

ولم أطق أن أسمع غير ذلك.. هذا العم الذى راجعت نفسى فى أمره وأقنعتها بأنه رجل طيب كبير القلب، لم تخطئ فراستى فيه أول ما وقعت عينى على دمامته المجسدة! وهو الآن يراود أمى! بل زوجتى ... أى نعم زوجتى التى يموهها الحلم ويزورها، ويلقى

فى حجرها صوفا تنسجه، ليوهمنى أنها غيرها وأنها أُمى! فيا له — الرجل لا الحلم — من سفيه مستهتر، ومتهتك سادر لا يبالى أن يخطف زوجات الرجال وهم ينظرون — أو يسمعون.. وما أراه يريد أن يتزوجها إلا على مالها، فإنها تبدو ذات ثراء، بل هى كذلك بلا مرأء. ويزعم الخبيث المحتال أنه إنما يفعل ذلك رقة على ولدها — الذى هو أنا فيما يتوهم وتتوهم معه — وليقوم حضرته بأمرى. بففف! ولم تبق عندى ذرة من الشك فيما صار أهلا له. وآليت لأكونن أبغض الناس إليه، وأثقلهم عليه، ولأوقدن له نارًا تزغرد شعاليها، ويسطع مريجها، ويضرب لظاها عليه مثل الخباء. وكلما تفرق عنها ما يسعرها، أو خبا شواظها، حششتُ لها حتى تعود ذات معمة وقرقة كضحكته الثقيلة، وحينئذ نرى أيهما يطيب له — الزواج أم الفرار؟

الفصل السابع

وانكفأت إلى غرفتي، وأوصدت بابها، وتذكرت أنى فعلت ذلك بارحة طلباً للنجاة من عبث الولدين — تري كيف هما الآن؟ — وأمهما، فصرت إلى هذا الحال المقلوب — أنا الرجل الكبير ارتددت غلاماً صغيراً، زوجتي انقلبت أما لى يخطبها لنفسه عم وقح لا يبالي أن لها بعلا متنكراً — بكرهه — فى هذا الالهاب الذى جُمعت وضُم بعضى إلى بعضى وحشرت فيه، والولدان الحبيبان على الرغم من العفرتة والشيطنة ماذا أصابهما يا ترى؟ وقطعت بضعة فراسخ فى هذه الغرفة الصغيرة، بين جيئة وذهوب، ثم انحططت على السرير من التعب والملل، وإذا بباب الشباك يفتح على مهل وبحذر، والعم أحمد الجنائنى يدخل من الفرجة برأسه أولاً، ورأى أن ليس معى غيرى فاطمأن ودخلت بقيئته، فبادرته أسأله: «بماذا جئتنى»؟

قال: «بجماعة من النمل».

قلت: «نمل؟ وما خير النمل؟ ماذا أصنع به»؟

قال: «إن له لقرصاً كلسع النار وكيها.. ثم إنه ما تطلب فى كل مرة».

قلت: «ألم يكن يسعك أن تأتى ببضعة قنافذ حديدة الشوك، أو بما هو خير — عقارب شائلة الازناب، أو أفعوان خبيث، أو طائفة من الحيات»؟

فبهت الرجل، وتلعثم، ولم يعد يدرى ماذا يقول.

ورميتُ إليه كيس النمل وقلت: «خذ. خذ. لقد خبيت أملى».

فقال وهو يحاول أن يتألفنى من نفرتى: «يعز على أن أخيب لك أملاً يا سيدى. ولكن هذا ما اعتدت أن تطلب دائماً، على أنى أستطيع أن أجمع لك قليلا من الضفادع، إذا أمهلتنى ساعة أو نحوها».

فلوحت بيدي وقلت يائساً: «ضفادع ونمل؟ ما هذا الكلام الفارغ؟ ألا تفهم؟ إن ههنا جريمة يوشك أن تُرتكب، ولا يجدى في منعها ضفدع أو نملة.. كلا. لا أقل من أفعوان كبير ... أو لعل العقارب تكفى. وعسى أن يكون أمرها أسهل».

فقال: «يا سيدى ماذا جرى لك؟ أى جريمة؟ هل أنت مريض؟»

وهم بالدنو منى وجسنى، فتراجعت وأشرت إليه أن خلك حيث أنت. وقلت بلهجة مرة: «هل أنا مريض؟ لا أسمع غير هذا السؤال كلما عجز الناس أن يفهموا عنى ... كلا لست مريضاً. ولم أمرض قط، وليس فى نيتى أن أمرض إذا كان يسرك أن تعرف هذا. فاذهب وهات العقارب، وإلا فهذا آخر العهد بيننا ... وخذ هذا النمل معك، فما بى إليه حاجة، وما غناء نملة صغيرة يدوس الواحد منا ملايين منها ولا يحس أنه داس شيئاً؟ أو خلّه هنا ... اتركه فقد ينفع الصغير من النمل فى الصغير من الأمور».

وذهب الرجل يبحث عن العقارب أو لا يبحث، فما عاد إلّى فى نهاره، ولا رأيت وجهه إلا بعد العشاء لما ... ولكن هذا سيجىء فى أوانه فلا داعى لتقديمه.

وطال انتظارى، سنة أو سنتين، فيما أحس، وما مضت إلا دقائق إذا صدقت الساعة الموضوعة قريباً من السرير.

وضاق صدرى ففتحت الباب وخرجت إلى الردهة، فرأيت الفتاة المعهودة تهم بدخول غرفة أخرى فقلت: «سسس...».

فتنبهت وارتدت إلى وقالت بابتسام: «أليس لى اسم يا بابا؟»

قلت: «معذرة فقد نسيت».

قالت: «نسيت اسمى؟»

قلت: «نسيت أن أدعوك به». وأردت أن أعدل بها عن هذا فسألتها: «غرفة من هذه؟»

أعنى لماذا تدخلينها الآن؟

قالت: «غريب. أنسيت أيضاً أن عمك يستريح قليلاً بعد الغداء».

قلت، وقد خطر لى خاطر: «كلا، لم أنس، ولكنى أريد أن أكلّمك، فهل أستطيع أن

أحدثك فى غرفة.. عمى؟»

قالت: «طبعاً. تعال ...».

وتناولت ذراعى. فقلت لها وأنا أقاوم شدها: «اسبقينى وسألق بك».

ففعلت، ودخلت الغرفة، وحملت كيس النمل ودسته فى جيبي.

ولما لحقت بها رأيته تخرج من الخزانة منامة كبيرة تتسع لثور، وتطرحها على

السرير وتضع على الأرض قريباً منه، صندلاً وقبقاباً، كبيرين كما لا أحتاج أن أقول.

ولم أسألها لماذا هذان، فقد أدركت بذكائى، أن الصندل ليتبختر به فى الغرفة، والقبقاب ليدخل به الحمام. فىا له من تزييد!

وأردت أن أصرفها فقلت: «ألم تنسى شيئاً؟

قالت: «ماذا؟»

قلت: «إنه أكل، والجو حار، وسيظماً، فأين الماء البارد؟»

قالت: «إنك تمزح».

قلت: «لا، أبدا. إنى جاد جدا».

قالت: «ما عليه إلا أن يدق الجرس فنحمل إليه ما يريد».

قلت: «ولماذا لا تعفين نفسك من رؤية وجهه الغليظ؟»

قالت: «أراك اليوم ساخطاً عليه فهل أغضبك منه شىء؟» قلت: «كل شىء يسخطنى عليه». واندفعت فقلت: «لقد سمعته يغرى!.. أُمى بأن تتزوجه...».

قالت: «لا؟ غير مصدقة».

قلت: «نعم، سمعته بأذنى هذه». وشددتها بأصبعين على سبيل التأكيد.

قالت: «وهل.. هل قبلت؟»

قلت: «أخشى».

قالت: «يا للمصيبة. بعد سيدى تتزوج هذا...؟»

فقبلتها، فما كان يسعنى غير ذلك. ولكنها كانت قبلة شكر واغتباط، لا قبلة ... كلا وأقسم! وقلت لها: «لم يخب ظنى. أنت أجمل فتاة، وأطيب فتاة، وأشرف فتاة، رأيتها فى حياتى الطويلة (فتبسمت راضية ومستغربة) والآن يجب أن نقصى هذا المحتال عن البيت، فإن أُمى صغيرة ساذجة (فكادت الابتسامة تصبح ضحكا) فما قولك؟ لقد أطلعتك على السر، ووافقتنى على أنه رهيب، فلا ينبغى أن تخذلىنى ...».

فقعدت على كرسى وقالت وهى تحرق فى وجهى: «لا أدرى.. إنى فى حيرة ... أنظر إليك فأراك صغيرا، وأسمع منك مثل كلام الكبار».

وهزت رأسها، وطأطأته، فدنوت منها وأرحت يدى على كتفها وقلت: «آه! هذا سر آخر أشعر أن فى وسعى أن أأتمنك عليه، ولكنى أخشى أن لا تفهمى، أو لا تصدقنى، أو تظنى أنى جننت».

فرفعت رأسها وزوت ما بين عينيها النجلوين وقالت: «سر؟ أى سر؟ لقد كثرت الأسرار اليوم؟»

فنازعتنى نفسى أن أبيعها إياه، وأن أقول بشجو، وأطرح عن صدرى هذا العبء الثقيل وأشركها فى أمرى، لعلها تستطيع، ولكنى أنا خليق أن أستريح بعد البث، ولكنى كنت أشفق أن تظن بى الخبل، أو تعد الأمر كله هذيان غلام يجمع به خياله الطائش، فقلت: أخطو بحذر.

وسألتها: «هل تصدقين أنى لا أعرف من أنت ولا ما اسمك لأنى ما رأيته إلا اليوم؟ وما كنت أقول ذلك حتى عضضت شفتى، فقد أدركت — بعد الأوان — أنى بدأت من حيث كان ينبغى أن أنتهى، فلا عجب إذا كانت قد وثبت إلى قدميها، وتناولت كتفى وهزتنى بعنف وسألت: «إيه؟ لا تعرفنى؟ لم ترنى من قبل؟ ماذا أصابك اليوم؟ إنك من أول النهار حالك حال لم أعده منك، فماذا جرى لك؟ قل لى ...».

فنحيت يديها عنى، وتحسست رقبتى التى كادت تنخلع وقلت: «ألم أقل لك؟ كلا! لا يمكن أن تفهمى أو تصدقى، فلأقصر فإنه أرشد. وخلصنا فى عمى وآمى...» وضحكت «لم يكن ينقصنى إلا آم وعم يسقطان على من السماء، ويتم بهما».

ولم أتمها فقد صاحت بى: «ماذا تقول؟».

فانفجرت، وقد نفذ صبرى، وصحت، كما تصيح: «أقول إنى لست هذا الغلام الذى تسمونه «سونه»، وما كنت أعرف أن هذا اسمه إلا بعد أن نادتنى به أمى ... وهى أيضاً ليست أمى بل زوجتى ... قولى ما شئت وظنى بعقلى الظنون، فما عدت أبالى ولكنها الحقيقة، أيضاً أن هذا العجل السمين الذى تظنونه عمى، ليس عمى، فما لى أعمام».

وأمسكت — اضطررت أن أمسك — فقد سقطت على الأرض مغشياً عليها! لم تقل شيئاً، ولم تصرخ، بل هوت، كما يهوى الثوب، الفارغ، فاضطربت، وتلفت، وأشفقته أن أستنجد بأحد فتحدثهم بما سمعت، فيحملونى إلى مستشفى الأمراض العقلية، ولحت زجاجة كولونيا فخطفتها وصببت منها على وجهها، وعلى كفى وأنشقتها، وجعلت أضرب لها وجهها، حتى فتحت عينيها ثم جلست وقالت وهى تفرك عينيها: «ياله من حلم» وتنبهت إلى وجودى فسألتنى: «سونه، ماذا جرى لى؟»

قلت: «لا شىء. رأيته تترنحين كالسكرى ثم تسقطين».

وحدثت نفسى أن خير ما أصنع هو أن أشجعها على الظن بأنها كانت تحلم، وأنها سمعت فى غيبوبة لا منى.

سألتنى: «هل كنت تقول لى شيئاً؟»

قلت: «نعم، كنت أسر إليك».

فصاحب بى وكفها على جبينها: «لا، لا، لا، لا تفعل ... يكفى يكفى ...». قلت: «ولكنك كنت موافقة على أن هذا الزواج لا يجوز ويجب أن يحال دونه؟» قالت: «إيه؟ زواج؟»

قلت: «نعم. هل نسيت ما حدثت بك به من أن عمى يريد أن يتزوج أمي؟» قالت: «آه. صحيح.. وو ...».

قلت: «وكنا نتشاور فى الوسيلة لمنع ذلك، وإذا بك يُغشى عليك». قالت: «أهذا كل ما كان؟»

قلت: «كله».

فتنهدت، وقالت: «الحمد لله. ولكنه حلم لن أنساه. ما أفضعه!» قلت: «ماذا رأيت فيه؟»

قالت، وهى تنهض إلى قدميها: «لا، لا، لا ... لا أستطيع. أوف يا حفيظ يارب!» وسحبتنى معها وخرجت بى من الغرفة.

وهكذا ضاعت الفرصة، وعدت بالنمل مدسوسًا فى جيبي كما جئت ورجعت إلى غرفتي، وعضنى الجوع، ولم أجد شيئًا يؤكل. فاستلقيت على السرير فأغفيت، ورأيت فيما يرى النائم أنى صبي صغير من خشب، وأنى أرتدي ثيابًا من ورق، وعلى رأسي طربوش أسمر من لباب الخبز، فأخوف ما أخاف النار والفيران. وبصرت بملعب على بابه رجل ينقر على طبله بعصوين ويدعو الناس أن يدخلوا، فتسللت من بين الأرجل، وإذا علي المسرح صبيان مثلي من خشب يرقصون، فما إن رأوني حتى كفوا عن الرقص وصاحوا جميعًا: «هذا أخونا التائه قد رُد إلينا». ودعوني إليهم فقفزت فإذا أنا على صلعة رئيس الجوقة التى تعزف، وقفزت مرة أخرى فإذا أنا معهم، فأقبلوا على يحيوننى ويعانقوننى. ودخل علينا عملاق يشبه عمى، نهرنا وزجرنا عن العناق وساقنا أمامه. وإذا نحن فى المطبخ وإذا كبش عظيم يشوى على النار، وانطرح العملاق على كرسي ونفخ نفختين ثم قال: «النار تكاد تخبو وتهمد، وعشائى لم ينضج، فتعال أنت (وأشار إلى) لألقى بك عليها فتذكو».

فجعلت أتوسل إليه وأقول إنى يتيم ولا أريد أن أموت — فعطس فقلت: «يرحمك الله» ودنا منى أخ من خشب خيل لى أن فيه مشابه من أحد ولدي وهنأنى بالنجاة، وقال إن صاحبنا يعطس إذا رق قلبه وأدركه العطف وسمعت العملاق يصيح مرة أخرى: «ولكنى لن أتعشى إذا تركت النار تخبو، فتعال أنت». وأشار إلى الأخ الذى يشبه

ابنى فيكى، وبكىت ثم رفعت رأسى وقلت: «كلا. إذا كان لابد من إلقاء أحدنا علي النار فأنا أولى». فعطس العملاق عطستين، فتبادلنا التهنئات، ونظر إلي وقال: «تعال أقبلك». فقفزت حتى صارت قدماى على لحيته، فضمنى إليه بأصبع، ثم حطنى على الأرض وقال: «كنت أرجو أن أنعم شيه ولكنه لم يبق لى مفر من أكله ملهوجًا ... لا بأس لا بأس».

فأقبل بعضنا على بعض يعانقه ويهنئه. والعملاق يهبر ويلقى فى فمه ولا يلقي إلينا عظمة، فالتهبت جوعًا وتلوت أمعائى، وذهبت عينائى فى رأسى واسترخيت فانحنى ظهرى، وصرّ، ورثيت لنفسى، وانهملت دموعى كالخيط المتصل، وأحاط بى إخوتى ينقرون على كتفى، ويسألوننى: «مالك تنتحب»؟ ويهزوننى فرفعت عيني إليهم فإذا أمى حانية علىّ تسألنى: «مالك يا سونه»؟

قلت: «جوعان..».

قالت: «الأكل حاضر يا حبيبى. قم».

الفصل الثامن

وكانت المائدة حافلة بما طاب من «الأكال والأشواب» التي كان ابن الرومي يحسد التجار على الفوز بمثلها. وأحسب أن ما أثقلت به إنما كان من أجل هذا العم المحتال. فما يعقل أن تجتزئ هذه الكرش العظيمة باليسير أو الرقيق أو «تلك التي مخرها ناعم. تلك التي منظرها شاحب». ان لا يفتأ يكلز لى طبقي ويحضنى على الأكل، ويزين لى طيبه وخفّفه على المعدة، وحسن ما يفيد من المتعة والصحة، كأنما يجد فى الوصف لذة كلذة الالتهام، أو كأنما هو يأكل بعينه وأذنه فضلا عن فمه — بجوارحه وحواسه جميعاً — ولا يزال يبدئ ويعيد فى الثناء على الطباخ. وكان جالسا أمامى — أعنى عمى لا الطباخ — وزوجتى — أعنى أُمى — بيننا إلى صدر المائدة فلم يفتنى ما كانا يتبادلان من لحظات مختلسة أو نظرات صريحة، فقلت فى نفسى: «يا خبيث، أو تحسب أنى أجهل أن التودد إلى الابن وسيلة إلى قلب الأم؟ وأن الثناء على حذق طباخها وسيلة أخرى؟ ولكنك تجهل أنى رجل فى زى غلام. وما أظن بك إلا أنك كنت حقيقاً أن تجتوى هذا الطعام وترتد شهوتك عنه لو اطلعت على الحقيقة».

ولم تكن بى حاجة إلى ترغيبه وحضه. ولكنى كنت أتفرز عن الطعام، من سوء ما يصنع، فقد كان تلقامة، يعظّم اللقمة ويلقى بها فى فمه كأنما يرميها فى كهف. وكان يأخذ اللحم بمقدم أسنانه، ويتمخخ العظم، ويتلمظ، ويتمطق، وتعلقت بشاربيه قطرات من الحساء. وانتشر بعض الفتات على ذقنه وصدره، حتى كرهت أن أنظر إليه، وصرت أتعجب لهذه المرأة ماذا أعجبها منه؟ ولكن النساء لغز، والذى يعرفهن معرفتهن لم يخلق بعد.

وكنْتُ أحدث نفسي كلما وقعت عيني عليه أنه لا ينقصه من العملاق الذى رُوِّعنى فى منامى إلا أن تُركَّب له فى عذاريه مخلدة من لحية، ولا ينقصه من الدواب إلا أن تملأ المخلدة شعيراً.

ونهبنا عن المائدة بعد أن انتقل ما كان عليها — أو معظمه — الى جوفه. وأن أن نتفرق لنستريح استعداداً للمساء والحفل الذى سيكون فيه. وكنْتُ أظهار قبل ذلك بالفتور وثقل الجفون. فلما أخلى سبيلى ذهبت أثب صعداً الى غرفته وأخرجت كيس النمل من جيبى، وحللتها، وأفرغت معظمه فى ساقى المنامة وكميها، وأطلقت البقية بين المخدات وأغطيته، وكررت بسرعة إلى غرفتى وقفرت إلى السرير، دون أن أخلع نعلى وتناومت.

ولم يكن هذا ما أبغى، ولكنه كان ما وسعنى. وما حيلتى وقد خذلنى الجناينى، ولم يجئنى، إلا بهذا النمل الذى لا خير فيه ولا غناء له؟ ولقد زعم أن قرصه كى، فعسى أن يصدق. وخامرنى الشك فى إمكان شعوره بديبب النمل ولكعه جلده، فإنه سميك غليظ. ولكنى تمنيت على الله أن يحرمه النوم والراحة على الأقل، فيسوء خلقه، وترى هذه المسكينة المخدوعة، من شكاسته وجلافته وعصره، ما كان يحرص على ستره بحلاوة اللسان. والله قادر على أن يضع سره فى أضعف خلقه.

وأخذنى النوم وأنا أتلعلق بالأمل فى النمل، وأتحول شيئاً فشيئاً إلى الاعتماد عليه والثقة به. وما أدرى أطلال نومى أم قصر. ولكن الذى أدريه أنى استيقظت مذعوراً على صرخات مجلجلة ودببة شديدة فى الردهة، وأصوات مختلفة ولجب عظيم. فأيقنت أن الله قد أجاب دعوة هذا الطفل الغرير البرىء الطاهر النفس. وترددت، هل أخرج أو أبقى؟ وزهدنى فى الخروج علمى أنى جنيت هذا وخوفى أن يفضحنى وجهى، ورغبى فيه أن اختبأى شبهة كافية، وقرينة دالة. ولا يُعقل أن أظل مستغرقاً فى نومى — وإن كنت طفلاً — على الرغم من هذه الزعقات الشديدة، والصرخات العالية، والهرج العظيم، والخبط والدب. واشتهيت أن أراه وهو ينط، ويتلوى، ويتعوج، ويتحرق ويشتم. وتصورت منظره وهو يفعل ذلك فضحكت. لم يبق محل للتردد والاحجام.

ولم أجد فى الردهة غير أمى والخدم من رجال ونساء. وكانوا جميعاً يتلاغطون ويضوضون، ولا يحفلون أن أمى بينهم. فسألت عن الخبر وأنا أتكلف الجهامة، فالتفتت إلى أمى، وأراحت يدها على رأسى وقالت بحنو: «مسكين.. تعال نم فى غرفة أخرفة أخرى بعيدة من هنا.. لا حول ولا قوة إلا بالله! ألا يستطيع الولد أن يستريح ساعة؟»

وهمّت أن تمضى بى، فثبّت قدمى. فما يجوز أن تفوتنى ثمرة مجهودى! وسألتها: «ولكن ما هى الحكاية؟».

قالت: «علمى علمك. كل ما أعرفه أن عمك خرج يصيح ويصرخ، ويضرب الأرض برجليه، وفي يده إحدى قطعتى المنامة. فلما خرجنا إليه أسرع فدخل وأقفل الباب وظل يصيح من خلفه ويسب ويلعن ... وقد سكن الآن قليلا ... فعد إلى غرفتك أو تعال معى».

قلت: «كلا» ونحيّت يدها «سأدخل عليه لأرى ماذا جرى له».

ودققت عليه الباب فصاح من ورائه: «لا يدخل أحد...».

قلت: «أنا سونه يا ... عمى».

فصرخ: «امش يا خنزير يا قليل الحياء».

قلت وأنا أغالب الضحك: «أقول لك أنا سونه».

قال: «آه! تقتل القتل وتمشى فى جنازته. هيه؟ تحشو لى ثيابى نملا وتجئ تسأل عنى ... لتنع بمنظر جلدى المشوى.. طيب يا ملعون والله لأؤدبك».

فالتفتُ إلى أمى، وكانت قد تبعتنى لما سمعت صوته، وقلت: «هل سمعت؟ إنه يزعم أنى وضعت له نملا فى ثيابه. فمن أين أجىء بهذا النمل، ولا نمل فى البيت؟»

فجذبتنى أمى من ذراعى وقالت: «سخيف ... ثقيل.. تعال».

فطربت، وكدت أرقص، من الفرح، وهممت بأن أنط وأبوسها، ولكنى رددت نفسى مخافة أن ترتاب فيفسد التدبير.

ولما عاد كل امرئ من حيث جاء، وسكنت الضجة، دخلت الفتاة الحسنة التى كنت لا أزال أجهل اسمها، وأشارت إلىّ وسبقتنى إلى الشرفة، ثم قالت لى بصوت كالهمس: «فى المرة المقبلة أرجو أن تكون أكثر حرصا».

قلت: «ماذا تعنين؟»

ونسيت أنى كنت فى الصباح قد رجوت منها أن تكون فى حلفى على عمى.

قالت: «لا تحاول أن تكابر، فليست هذه المرة الأولى، ثم إنك قد تركت هذا الكيس».

ورفعت به يدها لأراه.

فسألتها: «أين وجدته؟ وأدركت أنى اعترفت».

قالت: «لمحته على السرير فأخذته».

قلت: «هل رآه؟»

قالت: «لا، كان هذا قبل دخوله لينا».

قلت: «إنه يتهمنى على كل حال» وهزرت كتفى.
قالت: «نعم، ولكن الكيس دليل ماذى يقدمه إلى ماما فتقتنع، أو تشك على الأقل،
فلا ترميه بالتحامل عليك. أما الآن ...».
ومطت شفيتها.
قلت: «هاته».

قلت: «ليعثروا به عندك؟ كلا.. سأحتفظ به».
قلت، وأنا أهر كتفى: «إنه كيس فارغ».
قالت: «لم يكن فارغاً جدًّا لما وجدته. وقد تُسأل عنه: من أين لك هذا؟ فتلجأ إلى
الكذب. ولست أحب لك هذا».

قلت: «ألم أقل لك إنك أجمل فتاة وأطيب فتاة رأيتهما؟
فابتسمت، وشردت نظراتها، وقالت كأنما تناجى نفسها: «لا أدرى لماذا أحب كل
هذا الحب، وإن كنت شيطاناً صغيراً».

فوددت أن أسأله: هل تشيطنت عليها؟ ولكنى رأيت شروء لحظها، واستغراق
خواطرها لها فعدلت. ومضت هى فى المناجاة فقالت: «غريب. فى الصبح تعجبت
لاستحيائك أن أدلك لك جسمك — وأنا الآن أتعجب لنفسى — أشتهى أن أبوسك وأستحى
أن أفعل! لعلها عينك، فإن فى نظراتها لشيئاً».

فهممت أن أكر إلى ما أفضيت به إليها فى الصبح. وخفت أن ترتاع كما ارتاعت،
وألفيتنى أستطيب ما أجد من حنوها علىّ وأنسها بى، ومراضاتها لى. وحدثت نفسى أن
فى وسعى أن أحبها بذلك الجانب من نفسى المكنون فى ضمير الفؤاد، لا لعطفها، بل
لذاتها، ولحسن وجهها واكتمال أنوثتها. ولكن ما الرأى فيما نكبت به من هذا المظهر
الصبيانى؟ ولأخلق بها أن تسخر منى أو تسالرنى ضاحكة لاهية.

ورددنى ذلك إلى التفكير فى أمرى، وأمر زوجتى وولدى، ماذا صنع الله بهم؟ ماذا
قالوا وفعلوا حين أصبحوا فوجدوا سريرى خالياً؟ أو وجدوا جسمى ممدوداً عليه ولا
حياة فيه ولا روح؟ أليس واجبى أن أبتغى وسيلة إليهم، وأن أبلغهم أنى ما زلت حيا
أرزق، وإن كنت قد مسخت طفلاً، ليطمئنوا؟ وإنى لأجهل فى أية رقعة من الأرض أنا.
وللذى صيرنى غلاماً قادر على أن ينفينى من الأرض ويقذف بى إلى كوكب آخر. ولكن
أرى الناس هنا كما عهدت. فأنا ما زلت على الأرض، وهم يتكلمون لغتى، فأنا فى بلادى،
فليس لقاء أهلى بممتنع. ولكن هبنى لقيتهم فهل يعقل أن يصدقوا أن الطفل الأمرد هو

رجلهم الذى اختفى بقدرة قادر؟ أو مات؟ وهبنى اتخذت التليفون وسيلتى إلى إبلاغهم ما كان ألا يعذرون إذا ظنوا أن غلامًا يتماجن عليهم في محنتهم؟ ولكن ألا أن تنوب عنى هذه الفتاة الكريمة في أداء هذا الواجب؟ وماذا يكون حكم الله إذا زعرت مرة أخرى وأغمى عليها؟ لا بأس من التجربة علي كل حال. ولنمض على حذر. والله المعين.

وسألتها: «أليس هنا تليفون؟»

فكأنما لطمتها على وجهها.

ولما أفاق من دهشتها قالت: «يخيل إليّ أنك تريد أن تطير لى عقلى فهل سلفت منى إساءة إليك حتى تعاملنى هذه المعاملة؟»

فسألتها مستغربا: «لماذا؟ ماذا قلت مما يمكن ان يُحمل على هذا المحمل؟»

قالت: «تسأل عن التليفون كأنك لا تعرف ... وفي الصباح تقول لى إنك لا تعرف اسمى، ولم ترنى من قبل و...».

قلت: «ألا تزالين تسيئين بى الظن، وتحسبين أنى لا أقول الحق؟»

قالت: «رجعنا إلى ما كنا فيه صباحاً! (وتنهدت) الأمر لله (وكأنما تذكرت فقالت) هل تعنى أنك لا تعرف أن فى البيت تليفونا؟»

قلت بابتسامة مُرة: «وأنى لى أن أعرف؟ ألم أقل لك ...؟»

قالت: «لم أر طفلا أعسر منك أو أصعب مراساً».

قلت: «حلمك ... كل ما أريد منك، ويطمعنى فيه حبك لى، هو أن تذهبي أنت إلى التليفون، فى غفلة من الرقباء، وتطلبى رقماً سأكتبه لك، وتقولى لزوجتى أو أحد ولدى أو الحاجة، إنى ...».

ولم أتمها، فقد راحت تنفخ نفخاً شديداً كأن فى جوفها بركاناً فائراً، ثم التفتت إلى والعبرات ترفض على خديها وقالت: «ألا ترحم ضعفى؟ ألا يعطفك علىّ أنى محتاجة إلى عمل هنا؟ هل تريد أن أخرج من البيت؟»

وثنت رأسها ووضعت كفيها على وجهها وانتحبت. فكاد قلبى يتفطر. وأقبلت عليها أدعوها إلى السكينة، ولألفها، وأقسم لها أنى لن أعود إلى ما تكره منى. فقلت وهى تنحى الدمع عن خديها بأصبعها: «لست أكره منك شيئاً، وأنت تعرف ذلك ولكن أخشى على عقلى من مثل هذا الكلام. فاصنع معروفًا و...».

عود على بدء

فلثمت جبينها، ومسحت لها دموعها ووعدتها أن أكف. كلا ... لا فائدة. وصدق من قال:

«ماحك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك»

ولكن كيف؟ كيف؟ هذه هي المسألة..

الفصل التاسع

قضيت بقية النهار — ألا متى يصبح «ذاك» النهار؟ — فى سجن. ولست أعنى أنى حبست فى مكان، أو غُلّقت على أبواب، أو حيل بينى وبين الحركة والتنقل. كلا. فقد كنت أصعد وأهبط، وأدخل وأخرج، وألعب وأرتع وأنط، فى البيت والحديقة، كما أشاء بلا تقيّة أو حذر. ولكنى كنت وحدى لا رفيق لى، ولا ترب ألاعبه ولا شىء ألعب به. فاستوحشت وكانت أمى فى مخدعها أغلب الوقت. وما كان لى لذة فى مجالسة امرأة يخالط إحساسى بأنها أمى إحساس آخر بأنها زوجة. ولا كانت لى رغبة فى حديث هذا العم الذى نام، وشخر ونخر، بعد أن هزم جيش النمل، وكان الخدم مشغولين فى جناحهم بإعداد ما كلفوه للاحتفال «بمقدمى السعيد» أو عيد ميلادى كما يزعمون. وما جدوى الخدم، وأنا بى حاجة إلى من أبته شجنى فيصدق ولا يرتاع أو يغشى عليه أو يفر منى، أو يحدق فى وجهى ويتفرس كأنما يحاول أن يرى أمارات الجنون التى يرجو أن ترتسم أو تبرز على صفحته، أو يجسنى لعل محموم يهذى، أو يذهب يقهقه ويجاملنى فيسأيرنى وفى ظنه أنى أتخيل ما أقول وأصف.

وكان أمرى يحيرنى، ويورثنى اضطراباً وقلقاً شديدين، فإنه إن يكن هذا حلماً فقد طال وثقل، والأحلام لاتطرد على هذا النحو المنتظم، والأغلب فيها أن تتغير مناظرها وصورها ومواقفها وسائر ما يتمثل فيها لرأئها بغير ضابط، وهذا الذى أنا فيه والذى أراه، يجرى على نسق الحياة الدنيا، ويسير الهوينى جدًا، كتأتأة الطفل الذى يتعلم الخطو، ومتى بالله ينتهى حلم يأبى إلا أن يبدأ من بداية العمر، وتبطئ الساعات فيه كل هذا الابطاء فى الدوران؟ وسأحتاج إلى سنين وسنين كالدهر طولاً حتى أكبر، أو أفيق، وأرانى مرة أخرى على سريرى فى غرفتى التى أوصدت بابها ... أترى كسروه على، أم تركونى أنام إلى العصر الذى أنا فيه الآن؟ من يدرى؟ أم الأمر جد، وقد رددت طفلاً؟ إن

يكن هذا هكذا فلماذا بقى عقلى عقل رجل؟ أم تراه سيصغر شيئاً على الأيام — أو على الساعات — حتى ينقلب هو أيضاً عقل غلام حدث؟ فانى أرى نفسى تنازعنى أن أصنع ما يصنع الصبيان وأن أركب الحياة والناس بما يركبهما به حدث غريب، ولو تم هذا التحول لكنت به أسعد وأشقى — أسعد لأن. حادثى تستوفى حينئذ حقها بانتقاء هذا التليفق والترقيع، وأشقى لأنى أبت صلتى بما عشته وألفته وأنساه، وتتغير شخصيتى التى أنا بها ما أنا، ولست أرضى لنفسى هذا، ولست مستعداً أن أرضى سلفاً عن شخصية جديدة أجهلها، وأعتاضها من شخصيتى القديمة المألوفة، ثم لماذا تُكتب لى وحدى هذه المحنة دون خلق الله جميعاً، ويقضى على أن أحيا حياتين مختلفتين، وأمر بعهد الحداثة وما يليها مرتين؟ وإذا ظل الحال يجرى على هذا المنوال فأصغر بعد أن أكبر، فمتى يمكن أن أستريح وأعفى من هذا العناء المتكرر؟

وكنّت وأنا أدير هذا فى نفسى أتمشى فى الحديقة، فخطر لى أن مدّ البصر إلى المستقبل متعبة، وأن الساعة التى أنا فيها أولى بالعناية، وأن أول ما ينبغى هو أن أعرف أين أنا؟ أى بلد هذا وأى حى؟ لأعرف أقرب أنا أم بعيد من أهلى وبيتى، ويحسن أن أعرف ماضى «الجديد» فقد أقحم — علىّ حاضر أعيشه وأحياه بماض يُعد «مستعاراً» وهذا ترقيع لا تصلح به الحياة التى أعطيتها فإما أن أعطى ماضيها معها أو أعاد إلى الحاضر الذى زحزحت عنه وأجلبت لا أدرى كيف؟

وعلى فرط ما أجهدت رأسى، لم أر إلا أن الموقف يدعو إلى القنوط، فما من وسيلة مثلاً إلى إقناع أهلى، إذا تسنى لى أن أتصل بهم، بأنى أنا أنا — أعنى أنى أنا المفقود الذى اختطف وأن كل ما حدث أنى صببت فى هذا القلب، فأصبحت «طبعة جيب» من الرجل الذى كنّته وكيف يمكن أن يصدقوا أو يقتنعوا؟ ولكن الأ يمكن أن يقتنعوا إذا ذهب أخبرهم أخبار ماضى معهم وأروى لهم ما كان بينى وبينهم فى حياتنا المشتركة؟ ممكن إذا أصغوا، ولم تطر عقولهم قبل أن أفرغ من الكلام.

إذن أسلم أمرى إلى الله، فلا سعى ولا محاولة؟ وماذا يسعنى خلاف ذلك إلا إذا أردت أن أحمل إلى مستشفى المجانين لأعالج وأداوى من الخرف الذى أروع به الناس. وكنّت قد صرت تحت شجرة برتقال سكرى مثقلة الأغصان بما تحمل من هذه الفاكهة الطيبة. فجرى ريقى. فمددت اليد وقطفت وذهبت أقشر وأمص وقد أذهلتنى حلاوة البرتقال عما كنت فيه، فلما شبعنت وهنّنت، رحت أتعجب وأقول إنى أرانى كبيت نى شقتين أو جناحين، فلا أدخل واحدة إلا بالخروج من الأخرى، ومتى كان فتح باب

من هذه، أغلق باب تلك، وإن هذا ليكسبني ازدواجاً ورحابة، ولكنه يكلفني شططا، فإن إحدى الشقتين يجب أن تظل سراً مطوياً، وإلا حلت بى متاعب لا ينقصنى أن أعانيها، وستسكن هذه الشقة وطاويط الخواطر السود، ولكن ما حيلتى؟ وهل يعوض هذا أن الجانب الآخر يستطيع أن ينعم بمرح الصبيان وخفة الحداثة وطيش أحلامها وذهولها بجدة الحياة الفياضة عن الجد؟ ربما ... جائز ... وإذا كان قد جاز أن أصير طفلاً فلماذا لا يجوز أى شىء آخر؟

واليوم عرفنا أنه الجمعة، وغداً يجىء السبت، وأحسب أن سيكون على فيه أن أذهب إلى المدرسة، وإن كانت عيني لم تقع فى هذا البيعلى كتاب أو دفتر أو قلم، أم ترى للدرس غرفة خاصة؟ وكيف أذهب إلى مدرسة لا أعرف أين هى؟ وهبهم حملونى إليها فى سيارة، أو رافقنى إليها خادم، فإلى أى الفرق أقصد؟ وأى التلاميذ أحيى، وعن أيهم أعرض، ومن ألاعب ومن أتقى؟ واه لو كان الذى تقمصت بدنه قد ورثنى عداوات وخصومات وثورات؟ وأخرج يوماً أو ليلة أتمشى فإذا ثلاثة أو أربعة — أو أكثر أو أقل — من الحاقدين الموتورين أو المولعين بالشر — لوجه الله تعالى — قد كمنوا لى وراء شجرة، ثم انقضوا علىّ وأوسعوني لكما وركلا وتمزيقاً؟ أو قذفوني بحجارة فشجوا لى رأسى وأسالوا دمي وهشموا عظمى؟ وكيف أتقى هذا وقد أهمل الذى تخلى لى عن بدنه أن يترك لى ببناً يعرفنى ماضيه وعلاقاته الحسنة والسيئة؟ أما إنه والله لاهمال! أو لعلها سرعة الإبدال أنست الذى تولاه أن يعنى بهذه التوافه. وماذا كان الداعى إلى كل هذه العجلة؟ وما ضره لو كان تأنى، بل عدل؟

وخفت أن يذهب عقلى، فقد بدأت أخلط، فأقصرت، وبدا لى أن أذهب أعدو فيرفض عنى هذا الكرب عرقاً.

الفصل العاشر

وكان مساء ...

أي والله كان مساء ... وأي مساء؟ لن أنساه ما حييت، فقد كان سلسلة رجات تميد بى منها الارض، حتى لقد كنت — أفرش وأنا واقف وأبعد ما بين رجلي التماساً للثبات، من فرط شعورى بالزلزلة.

ولكنى أسبق الحوادث، فلأبدأ من البداية.

والبداية أنهم عمدوا إلى حجرة رحيبة مستطيلة رفعوا عن أرضها السجادة الوثيرة — لئلا يوسخها الغلمان بأحذيتهم الموحلة — ومدوا في وسطها مائدة طويلة أقاموا عليها مقصفاً، ولا قصف هناك ولا شبهه، فما كان ثم إلا الديكة، والحمام، والسّمك، واللحم، والحشو وما إليه والحلواء من فطائر وولاتق وما أشبه، والفواكه، وفي وسط المائدة فطيرة عظيمة مخلوطة بالصنوبر واللوز والجوز والفسق — على الرغم من انقطاع الوارد من ذلك في هذه الحرب — غرزوا فيها عشر شمعات بعدد سني عمري. فتأمل! لو جعلوها مائة أو مائتين لما أخطأوا أو أسرفوا، فقد عشت في هذا النهار وحده قرناً كاملاً وزيادة! وأضيئت الأنوار كلها حتى بتنا كأننا في عرس.. فشعرت بيد غليظة تعصر قلبي، إذ تذكرت أن زوجتى المسكينة تدبني الآن، وأن ولدى قد غاض معين المرح من نفسيهما، وحلت فيهما الترحة والغصة وأنا هنا يحتفي بي الناس ويسروننى ويبروننى.

و أقبل الغلمان فرادى وجماعات، وأنا أحبيهم وأرحب بهم، وإن كنت أنكرهم ولا أعرفهم، وكانوا يسلمون ولا يزيدون على الابتسام، ولا يجرون ألسنتهم بكلمة تهنئة، وأحسبهم ما كان يعينهم إلا الطعام الذى سيطعمونه، أو لعلمهم كانوا على استحياء من أُمى، وفزع وجزع من منظر العم الذى لا حاجة إلى تعريف جديد به.

وصاروا كثرا، وغصت بهم الحجرة التى سيقوا إليها، ورأيتهم صامتين يتخالسون النظر فقلت فى سرى: إنه لا يطلق ألسنتهم ولا يحل عقدتها إلا الطعام، فنهضت وأشرت إليهم أن تعالوا إلى المائدة، فهزت أُمى رأسها أن لا، وأشارت بأصابعها مضمومة أن تأن ... وأن الله مع الصابرين.

فدنوت منها وسألتها: «ما الداعى إلى التأخير؟»

قالت: «أما إنك لغريب ... ألا تنتظر الباقيين؟ لماذا تأخروا يا ترى؟»

ومضت إلى الباب ونادت: «يا لولو.. لولو».

فتعجبت للولو هذه من عساها تكون. ولهذا الولع بتصغير الكبار فى بيت يصلح أن يكون ثكنة لفيلق كامل.

وجاءت لولو فإذا هى فتاتى الحسناء التى خلعت لها قلبها وذعرتُها بما حدثتها به فى الصباح، والتى أكاد أرجح أنها ما تحولت إليه الحاجة.

وقالت لولو بأدب — تالله ما أحلى اسمها، وإن كان يذكرنى باسم كلب كان لنا وأراد لص أن يسرق بيتنا ففس له سما فى طعام تمهيدا للسطو المنوى: «نعم يا ستى».

قالت الست: «أسألى بالتليفون عن حمادة وسعيد لماذا تأخرا واستعجليهما».

حمادة، سعيد؟ ما أغرب هذا الاتفاق! وهممت أن أسألها من يكون هذان؟ ولكنى تذكرت أنى أعرفهما، أعنى أن المفروض أنى أعرفهما، ولا بد أن العلاقة وثيقة ما دامت أُمى تعطل الحفلة كلها وتؤخرها من أجلهما.

وخرجت لولو. ولكنها لم تذهب إلى التليفون، بل دارت على عقبيها وقالت ويدها على الباب: «ها هما يا ستى».

وصدق حدسى، وكنت أرجو أن يكذب. فما كان حمادة وسعيد غير ولدي الشقيين. ودارت بى الأرض حتى لم أعد أدرى أواقف أنا على قدمى أم على رأسى. ولما استقرت الأشياء فى مواضعها، وعادت، كما كانت، ثابتة لا تترنح ولا تميل كل مميل، مسحت العرق المتصبب من جبيني ومددت يدي إليهما واحداً بعد واحد. فضغطها كل منهما ضغطة خفيفة، وغمز بعينه. نعم هما الشقيان ولا شك، فإن هذا الضغط وذاك الغمز دأبهما أبداً. وهى لغة لهما يعنيان بها أشياء شئ — ترجمها أنت على مقتضى الحال إذا كنت تعرفهما، فمرة يكون المراد التهنية أو التحية، وتارة يكون التذكير بعبث شاركا فيه، وسرا به، أو بعبث اتفاقا معك عليه، وطوراً يكون إنذاراً بما ينويان أن يركباك به، فإنهما يأنفان أن يأتيا شيئاً من هذا القبيل لم يسبق الإنذار به والتحذير منه، وهكذا إلى آخره إن كان لهذا آخر.

ولم يكن يبدو عليهما قلق، أو ما يشى بقلق، فكدت أجن ... أهذا حال فتّين أصبحا فإذا أبوهما قد شق الأرض — والسريـر — واختفى؟ أو وجداه جثة هامة؟ مستحيل! إذن ماذا؟ أترانى هنا وهناك فى آن معا؟ أيمكن أن أكون انفلقت اثنين، فبقى منى واحد، حيث كنا جميعاً، وجىء بواحد إلى هنا؟

وكررت إليهما الطرف فإذا هما على عهدى بهما، لا يحفلان أن أُمى لا تنفك داخلـة خارجة، وأن هذا العم الضخم قائم كأحد تمثالى رمسيس فى مدخل وادى الملوك بطيبة، فهما يدغدغان هذا تحت إبطه، وذاك فى خاصرته، ويدسان أيديهما فى جيوبهما، ويخرجان مالا أدرى، ويضعانه بخفة فى قفا ثالث أو أذن رابع فيصرخ وينط، ويدفع يده إلى ظهره، فيقرر الشقيان سروراً، وتوقعت أن لا أنجو من عبثهما، ولكن هذا لم يكن يعنينى قدر ما كان يعنينى أن أتبين ماذا صنع الله بى هناك ... عندهما ... أعنى شطرى الثانى الذى انفلقت عنه، إذا كنت انفلقت شطرين.

وألّيت لاجلون هذا الأمر فجذبت حمادة من ذراعه ونأيت به عن الجماعة التى وقف معها، وتوقعت وأنا أمضى أن ينظر إلىّ يمؤخر عينه على عادته فأدرت وجهى إليه لأرى هل فعل؟ وصح ظنى، فكان ما توقعت، فزال كل شك يمكن أن يختلج فى الصدر.

وسألتـه: «من أين جئت؟»

قال: «ومن أين أجيء إلا من البيت؟»

قلت: «!...! وكيف حال الأسرة؟»

فقهقه اللعين وأشار إلى أخيه سعيد وقال: «إنه يسألنى كيف حال الأسرة؟»

قلت: «ماذا يضحك؟»

قال: «أتكره أن أضحك يا سونه هانم؟»

فدهشت وسألتـه: «سونه هانم؟ هل سمعتك تقول سونه هانم؟»

قال ببساطة وبابتسامة فيها معنى التحدى: «إن أذكك حادة».

فغلى الدم فى عروق الرجل الباطن وسأل ببرد متكلف: «ولماذا بالله؟»

قال بلهجة الزراية: «هذا الشعر البناتى الجميل، والصوت الستاتى الناعم».

فالختلط الأمر فى جوفى، وتنازعتنى دوافع شتى، وأشبهت مجلس سكارى يتلاغطون

ولا يصغى منهم أحد. فهذا رجل ثار غضبه وتلهب فهو يهم أن يصيح: «اخرس!» هذا

غلام يدفع رجله ليركل حماده وكفه ليلطمه. ولكن الرجل يتذكر أن حماده ابنه — أو

أن له وجه ابنه — فيكظم غيظه ويرد القدم الممدودة، ويجذب الكف المرفوعة فتتهوى

كأنما ليس فى كمها شئ. ويؤلم الغلام عجزه عن التشفى فيجول الدمع فى عينيه.

وقال حماده وقد رأى ما أسفرت عنه هذه المعركة الباطنة: «ألم أقل لك إنك بنت؟»
واصطلح على عجز الغلام الظاهر وشفقة الأب الباطن. فأوليت حماده ظهري
وخرجت من الغرفة كلها إلى ردهة مجاورة، ورأيتى لولو مستنداً إلى الحائط، وأصابعى
تنكف الدمع فحقت إليّ، وسألتنى: «مالك؟ هل حدث شيء؟»

وجمعتنى، وضممتنى إليها، فدفنت وجهى فى بطنها، وتركت الدموع تنهمر.

وأحسّت أنى هدأت فرفعتنى عنها ومسحت لى وجهى.

انتهت بى ناحية وسألتنى: «خبرنى ماذا جرى؟»

قلت: «زعم حماده أنى كالبنّت بشعرى وصوتى».

قالت: «أخص عليه، وفى عيد ميلادك أيضاً!»

قلت: «المصيبة أنه مصيب. فإن شعرى وصوتى يبدوان حتى لى أنا كما وصف».

قالت: «بل هو قليل الأدب».

فأقلت البطانة المحجوبة عن عينها بلسان الظهارة الصيدانية التى يسمونها سونه:
«لا، لا، لا، لا تقولى هذا. إنه ولد طيب. وقد رباه والداه فأحسنّا تربيته. صدقينى فإنى
أعرف».

قالت: «بل أنت الطيب لا هو. يشتمك فى بيتك، وينغص عليك عيدك ... هل هذا من

حسن الادب والتربية؟»

قلت: «إن مظهرى، كما وصفه، وأنا أعترف بهذا. وكيف أكابر فى واقع محسوس

ملموس؟ ولكن قذفه به فى وجهى مؤلم ... أما لو كان يعرف؟»

فسألت: «يعرف ماذا؟»

قلت: «لا شيء، يحسن أن أعود إلى ضيوفى».

ودخلت فى هذه اللحظة سيدتان، على إحداهما مسحة من ملاحه، والأخرى شابة
تامة الحسن. فلم أعرفهما كما لا أحتاج أن أقول، وإن كانتا قد أوسعتانى تقبيلاً وتهنئة.
وكان من غريب أمرهما أن إحدهما — سريعة الكلام، ولكنها تتكلم بأقصى حلقها، ففى
صوتها مغمقة لا تخف على الاذن، والأخرى كلية اللسان ولثغاء بالراء.

وقد غافلتهما، وهزرت رأسى للولو مستفسراً عنهما، فابتسمت وخبطت كفّاً بكف

فملت إليها وقلت: «إنما أريد أن تحدثينى عنهما، لا أن تعرفينى بهما».

فأقلت: «إنهما كما تعرف أختان، وقد تزوجت الكبرى ومات عنها زوجها فرجعت

إلى أهلها، فكان هذا من من سوء حظ أختها. فقد كان خطابها كثراً فقلوا بفضل أختها».

فاستزدتها فقالت: «الصغرى لا تخلو من سذاجة. وكلما خطبها خاطب، راحت الكبرى تدور من ورائها وترمى نفسها على هذا الطالب، وفي مرجوها أن تفوز هي به فتفتره، وهكذا، فلا أمل للصغرى في زواجٍ ما لم يسق الله من يحمل الكبرى ويريح أختها من حماقتها».

فسألتها — لم يسعنى إلا أن أسألها: «وأنت يالولو، أصدقينى، أليس لك خطب؟»
فدفعتنى بيدها وقالت وهى تضحك: «لا تسخر منى».

قلت: «إنك كنز، حصان رزان، لبيقة عطوف. وإن الذى يظفر بك لسعيد».
قالت وهى تنتهد: «ومن ذا الذى يرغب فى خادمة فقيرة؟ ثم إنى راضية قانعة بما أنا فيه. والله الحمد».

وتنهدت مرة أخرى، وندت عن صدرها «إيه» طويلة ممطوطة ثم تنبعت وقالت لى:
«اجر العب مع ضيوفك ... اذهب ... ماما تشير».

ودخلنا إلى حيث المائدة، وتقدمت الصفوف، وإلى يمينى ويسارى حماده وسعيد، ولم أخترهما أنا وإنما اختارتهما أُمى — تلك التى أعرف بشقى المستور أنها زوجتى — فحمدت اختيارها على الرغم من تطاول حماده على بالقول الجارح والوصف الممض، واصطففنا أمام المائدة من الجانبين. وحمدت لأُمى مرة أخرى أنها أعفتنا من العم والسيداتين ومضت به وبهما إلى غرفة أخرى وتركتنى مع أترابى أحرارا. وما كادت تخرج، حتى صارت الغرفة كالحمام الذى ليس فيه ماء، فعلا الصياح، وكثر اللغط، وتدافعت الأيدي، وانطلقت صرخات من هنا وهنا، لأن واحداً داس على قدم جاره، أو ضرب ساقه العارية بطرف حذائه، المحدد، أو رفسه بمؤخره، أو قرصه، أو فعل غير ذلك مما يُغرى به الغلمان.

وكان حمادة وسعيد لا يأكلان إلا بقدر، وكنت أحتما وأشجعهما فيبتسمان ولا يزيدان، فسرني وساعنى هذا — سرني منهما القصد وقلة التهاك، وساعنى أن أراهما يأكلان دون الشبع.

وأن أن نفخ الشمعات ونطفئها، وكان شر ما فى ذلك أن الأم وضيوفها عادوا ليشهده، فخفت الأصوات، وصارت همسات مقرونة بخبطات خفية ووخزات الجنوب، ونخسات من الخلف، وركلات تحت المائدة، وكان بالى إلى الجمع وعينى عليه لا على جارى اللذين كانا يبدوان ساكتين رزينين. وقد أقلقنى منهما هذا السكون، فإنى أعرفها، لا يكون سكون طائرهما إلا نذيراً بالشر.

وأَدْنَيْتُ الفطيرة بالشموع المغروزة فيها، واحتجت مع ذلك أن أشب عن الأرض لأطولها. ولم تكف نفخة واحدة، فتكرر النفخ مرات إلى اليمين وإلى اليسار، وشغلت بذلك عن كل ما عداه، حتى إذا فرغت منه تناولت الشوكة والسكين وعكفت على الفطيرة أقطع منها وأوزع. وناولت منها الكبار نصيبهم، فحملوه في أطباقهم ووقفوا حلقة على مسافة منا يتحدثون، وإذا بهؤلاء الصبيان ينفجرون ضاحكين مقهقهين، مكررين، مخطخين، ويلقون بالأطباق على المائدة فترتج وتقع الأشواك أو بعضها على الأرض، ويروح بعضهم يصفق، والبعض يضرب المائدة بجمع يده أو ببطنها، وأنا أنظر إليهم، وأدير عيني فيهم، وفمى فاغر كالأبلة من الدهشة.

ولكنهم كانوا معذورين، فقد كان منظرى يضحك الثكلى. وتصور غلاما في ثياب جديدة نفيسة، وجيوبه تطل منها وتتدلى قشور الفواكه، من مثل الموز والبرتقال والليمون الحلو! حتى العُرى أدخلت فيها «قصاصات» من هذه القشور، وعقدت على هيئة الأنشوجة، حتى زيق السترة المحيط بالعنق تدلى من تحته قشر الموز، حتى الرأس رشقت وردتان على جانبيه، وزين اليافوخ بنثار الزهر.

وكننت حقيقاً أن أحمل كل ذلك على محمل المداعبة، ولكن العيون ضربت على من حدق نطاقا، وكانت سخرية النظرات والضحكات بينة، لاختفاء بها، ولم يخالجنى شك فى أن حمادة وسعيد هما اللذان صنعا بى هذا، ولو اقتصر الأمر على قشور الفاكهة التى حليت بها ثيابى لما كبر على ذلك، ولكنهما — والويل لهما، وإن كانا ولدئى — رشقا لى الورد فى شعرى ونثرا لى غلائل الزهر عليه تشبيهاً لى بالبنات وتشنيعاً على، ولزاً فعابانى فى وجهى، وحقرانى على ملأ من أحداث لاشك أنهم سيجعلونى مضعه فى أفواههم طول الأسبوع، بل الشهر على الأرجح.

ورميت الورد، ونفضت نثار الزهر عن رأسى، أول شئ، فقد كان هذا هو الذى أمضى وأرمنى، ونزعت أُمى ما على ثيابى، وهى تضحك — سامحها الله — وتقول لى: إنه مزاح لاينبغى أن يغضبنى.

ولكنى كنت مغيضاً محنقاً ولافائدة من محاولة التسرية عنى، فدفعتُ يدها عنى بعنف، وانطلقت خارجاً من الغرفة إلى الحديقة، ورحت أَمْشى، مطرقاً، وأفكر فيما ينبغى أن أصنعه، فما بقى مفر من أن أصنع شيئاً أميط به عنى هذا الذى يلصقه بى الولدان اللعينان، ويجعلانى به أضحوكه وهزواً بين الغلمان، ولافائدة ترجى من الترقق بهما والحنو عليهما، فما يعرف أحد ما أعرف من نفسى، وكل مايعرفه هؤلاء

الصبيان أنى ولد مثلهم، وأن حمادة وسعيد مازحاني هذا المزاح الثقيل، وزعماني كالبنت، وأنى جينت فالخير كل الخير أن أؤدبهما، وإن كانا ضيقى، وإن للضيف لحرمة عند الكبار، ولكن الصغار لا يرعون حرمة لشيء، وسيحملون حلمى على الجبن وضعف القلب، ويتقرر في نفوسهم أنى كما زعم الخبيثان فلا أزال بعد ذلك أقع كل يوم في بلية، وأتعرض لحديث الأولاد وسخرهم وعبثهم.

واستقر رأيى على أن أضربهما علقه، في هذه الليلة، وفي هذه الحديقة، وأنسانى الغيظ والموجدة، أنى لو كنت في إهابى المنزوع لهان ذاك وتسنى، وأنى صغير مثلهما، ولعلى أضعف منهما وأضوى جسما وأقل شدة عظام.

ودرت لأدخل وأستدرجها إلى الخروج، ثم أخذهما بما فعلا. ولكنى لم أحتج إلى تكلف ذلك. فما كدت أخطو خطوات، حتى رأيتهما مقبلين على مهل. فوقفت في مكانى، أنتظرهما، فلما صارا أمامى قال أكبرهما (سعيد): «لقد كان منظرک ممثعا». كأنما يباهى بما صنع، ولا يحفل ما أورثنى من ألم وخجل، فلم أقل شيئا، ورميته بنظرة سخط واشمئزاز.

وقال الآخر (حمادة): «ما كان أحلى الورد في شعرك ... لو كان الوقت اتسع لضفرت لك منه إكليلا ... يا خسارة ... إذن لكنت كالعروس ليلة الزفاف».

فطار عقلى، وارتميت عليه اريد أن آخذ بتلابيبه، وأجذبه إلى الأرض وألقيه على وجهه أو شقه، وأعجبه بقدمى، ولكنه كان كأنما توقع ذلك. فقد انحرف عن طريقى بخفة، فوقعت على الأرض — بوجهى — كالحجر، وانغرس أنفى في التربة الطرية، فلبثت هكذا ثوانى، لا أتحرك، ثم رفعت رأسى وجذبت رجلى ونهضت متثاقلا، وشرعت أمسح ما لطح به وجهى من الطين، وهما يضحكان، ومن ورائهما جمع يضحك معهما، فقد تبعهما الباقون، وأنا لا أدرى.

وصار موقفى أبعث لى على السخط، ولهم على الهزؤ، وأدركت أنه لا خير في مثل ما صنعت، فقلت لحماده: «لو لم تكن جباناً لما أجفلت ...».

فضحك وقال بهدوء غريب: «إنما تنحيت عن طريقك إشفافاً عليك، فإنك مسكين هش لاعظم في بدنك، ولو شئت لدفعت في صدرك فحطمت لك ضلوعك أو لبططت لك أنفك وشوهت وجهك البناتى».

قلت: «طيب خذ». وألقيت نفسى عليه مرة أخرى، وحرصت على أن لا أدعه يفلت كما فعل من قبل، ولكنه أخذ بناصينى وثنى عنقى، حتى خلت من ألى أنه سينقطم،

وراح يضرب صدغى بجمع يده، وبطنى بركبته حتى أيقنت من شدة الوجع أنى طائح هالك لا محالة ثم خلانى ودفعنى بكلتا يديه فانطرحت على ظهري، انطراح من لا ينوى أن يقوم بعد ذلك أبداً.

ولم أكن — وأنا راقد — أفكر فى شىء أو أحس شيئاً سوى هذا الفتور الذى جعلنى أخلد إلى رقدتى، وسمعت صوتاً تأدى إلى من بعيد يقول: «يظهر أنه استحل الرقدة، فتعالوا يا جدعان».

وتالله ما أقسى قلوب الصغار وأغلظ اكبادهم، إن صح أن لهم أكباداً، وهو ما أشك فيه، فقد تناولونى من ذراعى، ورجلى، ورفعونى بينهم عن الأرض وراحوا يطوحوننى يميناً وشمالاً، كأنى لعبة فى أيديهم، لا مخلوق مثلهم مشفٍ على الهلكة، وكنت لا أضحك، ولا أقاوم، لأنه لم تبق لى قدرة على صياح أو حركة وإن كنت مدركاً لما يفعلون محسناً به. ولو كان الأمر إليهم لقتلونى وما عبأوا شيئاً. وما زلت إلى هذه الساعة أتعجب لشدة نقمته على من تقمصت جسمه، وقلة عطفهم عليه ورحمتهم له، فما سمعت واحداً منهم يزجرهم أو يدعوهم إلى القصد وينهاهم عن الشطط، فلولا أن عم أحمد — جزاه الله خيراً — أقبل فى تلك الحظة، لظلوا فى لهوهم القاسى. وما كادوا يبصرونه حتى تخلوا عنى وذهبوا يعدون فى أرجاء الحديقة، فهويت إلى الأرض مرة أخرى، كالحجر

الفصل الحادي عشر

وأفقت في سريري، على أُمى بجواري، وعمى يتمشى في الغرفة، ولولو تضع كِمادة على خدي الوارم.

وسمعت عمى يقول: «لقد كان رأيي دائماً أن هذا الولد يجب أن يزاوُل ألعاباً رياضية، رياضية لتشتد عظامه، وتقوى عضلاته، ولكنك تبالغين في الخوف عليه من النط والقفز، فانظري ماذا صار؟ ولد صغير أصغر منه — يدقه هذا الدق ويطحنه حتى تنقطع أنفاسه، لو كان بنتاً لما كان هناك بأس، ولكنه ليس بنتاً...».

فقالت أُمى تقاطعه: «ألا تكف عن هذا اللت والعجن؟»

فدار وواجهها — بكرشه — وقال محتجاً: «لت وعجن؟ أنا أريد أن يصبح رجلاً وأنت تربينه تربية البنات. وأنصحك مرة وأخرى. فتقولين إنني ألت وأعجن! سبحان الله العظيم! طيب ... ولكني لن أكف عن اللت والعجن حتى تغيري كل هذا. إنه ابن أخي — يعني ابني — كما هو ابنك. ماذا تخشين عليه؟ أن تنكسر ساقه؟ أو ذراعه؟ أن يدق عنقه؟ كل الأولاد في كل الدنيا يلعبون ولا يصيبهم سوء.

فلماذا يصيبه السوء وحده دون هذه الآلاف المؤلفة؟ وهبيه انكسر، فالكسور تجبر». فتنهدت وقالت: «طيب.. طيب، آمنا وصدقنا، ولكن هذا ليس وقت الكلام ثم إن الدكتور قال يجب أن لا نزعجه بكثرة الكلام، فاصنع معروفاً...».

فقاطعها بدوره وقال ساخراً: «الدكتور؟ دكتور لماذا؟ لأن ولدأُ ضربه علقه؟ تقلبين الدنيا لأن خبطة ورم منها خده؟ هذا إسراف في التدليل ... هذا...».

فصاحت به: «يا أخي أنا في عرض النبي، اسكت...».

فصاح بدوره: «أسكت كيف؟ إنك تفسدين حياة الولد المسكين، فكيف أسكت؟» قالت: «طيب، تول أنت إصلاح حياته. بس فيما بعد. ولنتركه الآن مستريحاً».

ونَهَضت بعد أن ألقت على نظرة، وإلى لولو أخرى، وسحبت عمى من الغرفة، وخيراً صنعت. فقد بدأ رأسى يوجعنى من صوته «الجب» الموضوعى.

ولم يكن بى شىء يستحق الذكر غير هذا الورم الذى زاد به خدى أنتفاخاً. وكان فتح فمى ربما كلفنى بعض التعب وقد استغربت أن يكون الأمر احتاج إلى طبيب، ولكنى أحسب أن أمى أفزعها الاغماء، فاستدعته، وكنت لما هجمت على حماده أشعر أنى أقذفه منى بجبل، فإذا أنا هش ركيك البناء خرج، لا أقوى على شىء، وأخجلنى هذا الذى تبينته من أمرى ومن صدق حماده فى وصف وهنى وخورى، وجال الدمع فى عيني وأنا راقد وعلى خدى الكمادة، فربت لولو على ذراعى وقالت بابتسام: «علقة تفوت ما حد يموت. تعيش وتأخذ غيرها».

وكانت تمزح ولا تقصد إلى التعبير. فأطلق ذلك لسانى فقلت: «لم أكن أعرف أن جسمى واه إلى هذا الحد. وقد كنت واثقاً حين هجمت عليه أنى سأكله بعضهم».

ففتحت عينيها مستغربة، وسألت: «أنت.. تقول إنك هجمت عليه؟» قلت «نعم. فقد تحرش بى و استفزنى فنقد صبرى فألقيت بنفسى عليه كان ظنى أنى سألقى عليه درسا لا ينساه، فتلقيته أنا عنه».

قالت: «لا أزال أستغرب ... كيف هاجمته؟»

قلت: «ألست أقول لك إنه استثار غضبى؟»

قالت: «ولكن.. لقد كنا نظن أنه هو البادئ بالعدوان».

قلت: «العدوان باللسان. نعم، أما باليد فأنا البادئ».

قالت، وكأنها تحدث نفسها: «غريب ...».

قلت: «ما هو الغريب».

قالت: «أن تكون أنت المعتدى، عهدنا بك أن يعتدى عليك، فتلوذ بالفرار ولا تثبت

لاحد».

فصرت أنا المتعجب وسألتها: «أهذا كان دأبى؟»

قالت: «كأنك لا تعرف! إنك اليوم على خلاف ما عهدنا ... فى كل أمر ... مدهش هذا

التحول».

قلت فى سرى: «ما خفى كان أعظم، وإذا كان يدهشها إلى هذا الحد أن ترانى أتحوّل من الفر إلى الكر، فكيف لو اطلعت على المغيب من تحول الرجل الشديد المحتك إلى فتى ضعيف القلب منسرق المنة؟»

وقلت لها — كالمعتذر: «لو كنت أعرف أنى ضعيف إلى هذا الحد لبقيت محافظاً على تقاليدى».

فزاد عجبها ولم ينقص، وقالت، وأغضت عن المزح الذى فى قولى: «كيف لم تكن تعرف؟ هل هذا معقول؟»

قلت: «والله ما أقول إلا الحق، ولقد حملت عليه وأنا على يقين أنى سأخذه فى راحتى، كأنه لعبة صغيرة، ثم ألقه وأقضى عليه. ولكنى كنت أجهل ما أنا. فما سبق أن امتحنت قوة هذا الجسم ومبلغ جلده».

فجست جبينى، وفى ظنّها أنى أهذى من حمى أو غيرها. فلما لم تجد شيئاً قالت: «إنك تدير لى رأسى بهذا الكلام الذى تلهج به طول النهار ... فيحسن أن تسكت لئلا تتعب».

فسكتت، فإن الاسترسال فى هذا المعنى عبث لا طائل تحته. وكنت أرى رقتها وحدها وهى تمرضنى، فأعجب لمثلها فى مثل جمالها كيف أخطأها الزواج، وما أخطأها فى الحقيقة، فإنها غضة السن، ولكن مثلها يخطف خطفاً؟ وقلت لها بعد قليل: «أراك هربت منى الليلة كما تقولين إنى كنت أهرب من الأولاد ...».

فعبست — تكلفت التعبيس — وهل يحسنه من يضحك الجمال فى وجهه ويضيء؟ وقالت: «لست فاهمة».

قلت: «سألتك هذا المساء لم لم تتزوجى؟ فهربت من الجواب الصريح». فضحكت، وقالت: «أه هذا ... لا لم أهرب ... قد يسليك أن تعلم أن رجلاً ليس من طبقة الخدم مثلى خطبنى ...».

وضحكت مرة أخرى. فقلت معترضاً: «لست أرى موجباً للضحك ...».

قالت: «نعم. رجل ذو مال ... حكاية ظريفة. هل تريد أن تسمعها؟» قلت: «طبعاً ... ولكن لماذا هذه السخرية ... أو هذه الماراة فى لهجتك؟.. ما عيب الرجل ذى المال؟»

قالت: «لا عيب فى ماله. وإنى لأكون كاذبة إذا ادعيت الزهد فى المال والنعيم والراحة».

قلت: «العيب فيه هو إذن؟»

قالت: «انتظر ... أصر أن أتعلم الموسيقى ...».

قلت: «فن جميل يزيد الحياة طيباً وسعة».

قالت: «صحيح ... واشترط أن أتقن العزف على الكمان. وعليه النفقات كلها ...».

فظننت أن الذى زهدّها فى الرجل طول الزمن، فسألتها، فقالت: «كلا ... فإننى أنتظر
بغير خطبة ... فلماذا لا أنتظر بخطبة؟ ولم يكن هذا كل ما طلب وشرط. فلا بد أن
أتعلم الرقص أيضاً».

قلت: «أراه رجلاً يعرف من أين تؤكل الكتف كما يقولون».

قالت: «كتف؟ ... كتف إيه؟»

فابتسمت وقلت: «يعنى أنه ذكى يفهم».

قالت: «طيب ... وكان ابن خمسين وأصم وله ساق من خشب ...».

فلم أقل شيئاً. ولكن الغلام الذى لبست جلده ضحك. أما الرجل الذى فى جوفه
فحدث نفسه أن الدنيا لا تكون دنيا إلا إذا اجتمع فيها كل صنوف الناس.
وعادت تقول بابتسامة: «ولى محب عاشق ولهان آخر ... أظنك تعرفه ...».

قلت: «أنا أعرفه؟ ... من هذا؟»

قالت: «عم أحمد الجناينى».

قلت: «آه ... هذا الذى نهيتنى عن الكلام معه؟»

قالت بحدة: «لم أنك. وإنما نقلت إليك كلام الست ...».

فأستغربت حديثها، وقلت: «إنه رجل طيب ... وله على فضل ... أذكره ولا أجده.
وإن كان قد خيب أملى قليلاً».

فصارت هى المستغربة، وسألتنى بلهفة: «خيب أملك؟ كيف؟ إنه يحبك حباً شديداً،

ويحب التراب الذى تمشى عليه ...».

فسألتها مستدرجاً لها: «هل قال لك ذلك؟»

قالت ببساطة: «مراراً كثيرة ... إنه لا يكاد يكون له حديث إلا عنك».

فحدثت نفسى أن فى الزوايا خفايا كثيرة، وفى الدنيا أعاجيب لا تنتهى. هذه فتاة
يخلب جمالها الأبواب. وفى وسعها لو شاءت أن تقطع هذه العزوبة وتتزوج فى أية طبقة.
فما يستطيع أن يقاوم فتنتها من تتصدى له ... فتعرض عن المال والجاه. وتقصر
أملها على بستانى فقير، تحذيه شر من الحفى ... فالحق أن الحب أعمى. والحظ أيضاً.
وماذا ترى أعجبها من هذا البستاني؟ وماذا يروقها من حديثه، أو مجلسه أو حاله على

الجملة، حتى تروح تنشد لقاءه، وتنعم به — أيضاً في غفلة من الرقباء؟ وإنه لرجل طيب، ولكن هذا لا يكفي. وقلت لنفسى: «خسارة. خسارة والله».

ويظهر أنى تكلمت بصوت عال، وأن هذا صار عادة لى. فقد سألتنى: «ماذا تقول؟» قلت: «لاشئ...».

قالت: «ولكنك كنت تقول شيئاً».

قلت: «نعم، كنت أعرب عن أسفى لأن عم أحمد جاءنى بنمل، ولم يجتنى بما هو أجدى وأفعل وأكفل بأن يحمل صاحبنا على الهرب».

قالت، وهى تضع سبابتها على شفيتها: «أظنه اتياً الآن ... ليعودك فإنى أعرف دبة رجله».

قلت: «إذن سأتناوم حتى تنقشع السحابة أو ينحسر ظل الجبل». وغطيت عيني بذراعى.

ولم يخطئ ظنها، فقد كان هو القادم بعينه — أو بطوله وعرضه وكرشه — ولم أره لأنى لم أرفع ذراعى عن عيني ولكنى سمعته يقول هامساً: «أهو أحسن؟» وأحسبها هزت رأسها فما سمعت صوتها. فعاد يقول: «عال! الحمد لله مسكين هذا الولد. عسى أن يصبح بخير...».

ثم كأنما خطر له خاطر وهو يمضى. فارتد وقال: «اسمعى يا لولو. أرجو أن لا ... لا تذكرى شيئاً عن زيارتى هذه لستك فإنها ... فاهمة؟ أشكر».

وخرج ورد الباب بحذر وخفة لئلا يوقظنى.

وسألت لولو: «ماذا يعنى؟»

قالت: «إنه ثقيل ولا مؤاخذه، ولكنه طيب القلب».

قلت. «ولكن ماذا يعنى؟»

قالت: «ستى دائماً تعيره أن قلبه يرق لك على الرغم من الثورات العنيفة التى يثورها. وهو أيضاً يقول عنها ذلك ... الحقيقة أن الاثنين، يحبانك حبا لا مزيد عليه».

قلت: «شكراً لهما ... وهل تحبيننى مثلهما؟»

قالت: «أتشك فى ذلك؟»

قلت: «قدر حبك لعم أحمد؟»

فاتقد وجهها واعترفت إذ سألتنى: «من أدراك؟»

قلت: «فضحك وجهك ونم عليك هذا الأرجوان الذى صبغه».

فأطرقت حياءً فقلت أطمئننها: «لا تخافى على سرك. فسيظل مطويًا مع سرى».
فرفعت رأسها وسألت: «سرك؟ وما هو؟»
قلت: «آه ... هذه هى المسألة ... إنه لا يبقى سرًّا إذا أفضيت به إليك».
قالت: «يا لك من مكر! هل تعرف أنك تبدو لى أحياناً أكبر مما أنت؟»
قلت: «أوه. جدًّا. جدًّا».

الفصل الثاني عشر

وَأَن أَنَام. وَلَمْ يَكُنْ يَرْتَقِ فِي عَيْنِي نَوْمٌ. نَعَمْ كُنْتُ مَتَعِبًا مَهِيضًا. وَكُنْتُ أَرَانِي أحياناً
بَيْنَ الْيَقْظَانِ وَالْوَسْنَانِ. وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَشْعُرُ بِمُقَارَبَةِ النَّوْمِ أَوْ ثَقَلِ الْجَفُونِ.
وَلَكِنْ قِيلَ لِي إِنَّ النَّوْمَ وَجِبَ، فَقُلْتُ وَهُوَ كَذَلِكَ، وَرَأَيْتُ أَنَّ هَذَا يَتِيحُ لِي أَنَّ أَخْلُو
بِنَفْسِي فَتَظَاهَرَتْ بِالطَّاعَةِ فَذَهَبُوا عَنِّي وَصَرْتُ وَحْدِي فَوَسَعَنِي أَنَّ أَفْكَرَ فِي أَمْرِي، فِي
سَرَّاحٍ وَرَوَّاحٍ، وَأَمَانٍ مِنْ أَنَّ يَتَطَفَّلَ عَلَى خُلُوتِي أَحَدٌ بِوُجُودِهِ.

وَقُلْتُ لِنَفْسِي هَذَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ قَدْ انْقَضَى، لَا بِسَلَامٍ، بَلْ بِعَلَقَةٍ، وَلَا عَجَبُ أَنَّ يَطْرُدَ
النَّحْسُ فِيهِ مِنَ الْبَدَايَةِ إِلَى الْخَتَامِ. وَقَدْ انْتَهَتْ الْحَفْلَةُ يَمَا لَا أَعْرِفُ. فَمَا عَنَيْتُ بِأَنَّ أَسْأَلَ.
وَلَا صَدَقْتُ لَحْظَةً وَاحِدَةً أَنَّ هَذَا عِيدُ مِيلَادِي. وَكَيْفَ يَكُونُ وَأَنَا لَمْ أُولَدْ هُنَا وَلَا لِهَؤُلَاءِ
الْقَوْمِ الَّذِينَ مَا عَرَفْتَهُمْ إِلَّا فِي هَذَا الْيَوْمِ؟ وَلَسْتُ أَدْرِي هَلْ يَنْتَظِرُ مِنِّي فِي صَبَاحِ الْغَدِ أَنَّ
أَذْهَبَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ أَوْ تَعْفِينِي الْعَلَقَةُ مِنْهَا أَيَّامًا؟ وَعَلَى أَنَّ هَذَا لَمْ يَكْرِبْنِي كَمَا يَكْرِبْنِي مَا
صَرْتُ إِلَيْهِ، وَمَا أَقْصَيْتُ عَنْهُ فَمَاذَا أَصْنَعُ؟ هَلِ أَوْطِنُ نَفْسِي عَلَى السَّكُونِ إِلَى هَذِهِ الْحَدَاثَةِ
الْجَدِيدَةِ، وَأَحْتَمِلُ أَنَّ أَكْبَرَ شَيْئًا فَشِيئًا، سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ مَرَّةً أُخْرَى أَنَّ أَعُودَ
رِجْلًا، بَعْدَ أَنَّ كُنْتُ قَدْ فَرِغْتُ وَاسْتَرَحْتُ مِنْ هَذَا الْعَنَاءِ؟ وَلِمَاذَا يَقْضِي عَلَيَّ أَنَا وَحْدِي بِهَذَا
التَّكَرَّارِ؟

وَعَدْتُ أَتَسْأَلَ: أَهَذَا حُلْمٌ أَمْ أَنَا أَرَى حَقًّا؟ فَإِذَا كَانَ حُلْمًا فَلْعَلَّنِي إِذَا تَحَرَّكَتُ أَنَّ
أَسْتَيْقِظَ.

وَأَغْمَضْتُ عَيْنِي وَجَعَلْتُ أَدْفَعُ يَدِي وَرِجْلِي وَأَضْرَبُ بِهِمَا الْهَوَاءَ وَأَتَقَلَّبُ بِعَنْفٍ. ثُمَّ
فَتَحْتُ عَيْنِي وَأَجَلَّتْهُمَا فِيمَا حَوْلِي وَأَنَا أَتَوَقَّعُ أَنَّ أَرَى غُرْفَتِي الْقَدِيمَةَ الَّتِي أُسْرَى بِهَا مِنْهَا،
وَلَكِنِّي عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الظَّلَامِ لَمْ أَرَأْنِي قَدْ عُدْتُ إِلَيْهَا. فَهَبَطْتُ قَلْبِي وَكَادَ الْيَأْسُ يَخَامِرُنِي
مِنْ النِّجَاةِ أَوْ الْأُوبَةِ إِلَى مَا خَلْفَتْ.

ثم ضحكت — أضحكنى أنى أتكلف هذا العبث لأستيقظ، وما كنت نائماً، ولو كان شيء خليقاً أن يوقظنى، لتكلفت بذلك العلة السخنة.

وسألت نفسى: «والآن ما العمل؟» وجلست ونزعت الكمادة التى تركوها على خدى وحدثت نفسى أن الطبيب الذى عادنى وأنا غائب عن وعيى وعن هذا العالم الجديد الذى قذف بى عليه، حمار. وكيف عجز أن يتبين أن هذا الالهاب الصغير، محشو برجل كبير ولم يفتن إلى هذه الغلطة الجسيمة؟ وما قيمة ورم قليل فى الخد وأنا كلى واربم؟

وكيف غاب عنه أن جلدى مكظوط ومشدود لأن ما هو أكبر منه حشر فيه؟ وكففت عن هذا فما فيه خير. وقلت إن الطبيب لم يكن معنياً إلا بما يستحق عليه أجره. ولو كان غنى بالفحص الجدى لاطلع على معجزة ولوقع على مالم يقع عليه طبيب من قبل. ولصار بذلك علما خالد الذكر. ولكنه لايعرف إلا ما فى كتبه ولايجعل باله إلى الأعراض البارزة جدًّا، ويدخل متأثراً بما قيل له، وقد عادنى وكل ما فى رأسه أنى ضربت علة. فلم يكلف نفسه أكثر من النظر إلى المواضع التى أصابها الضرب. ولو أهمل ما قيل له، ودقق فى الفحص لعلم أنى مدسوس فى جسم غير جسمى.

وبدا لى أن الطبيب سيضيع وقتى، إذا كنت أعود إليه كلما اعتزمت أن أتركه. وماذا كان يسعه؟ أهذا صندوق يستطيع أن ينزع مساميره ويرفع غطاءه ويخرجنى منه؟ إذن فلندعه إلى ما هو أجدى.

وخطر لى أن أجدى من ذلك أن أنهض وأحاول أن أتصل بأهلى! وقد عرفت أن ههنا آلة تليفون، وقد نام البيت، ففى وسعى أن أستخدمه، وبحسبى أن أسمع صوت زوجتى أو غيرهما ممن فى البيت، فما أطمع أن يصدقونى إذا قلت لهم إنى رجلهم! ورأيتنى وأنا أهبط على درجات السلم بحذر وعلى أطراف أصابعى أتساءل: «كيف يكون الحال إذا طلبت بيتى فأجابنى صوت كصوتى الذى أمسيت به وأصبحت بخلافه؟ أى إذا تبينت أنى لا أزال هناك وإن كنت هنا؟»

وطردت هذا الخاطر فإنه مثبت ومزعج، وذهبت أنسل من غرفة إلى أخرى وأتلفت وأستثبت قبل أن أدخل حتى اهتديت إلى التليفون، وكان فى غرفة تشبه غرفة مكتب إلا أنه لا كتب فيها ولا شيء سوى مكتب ألصق بالحائط ووضعت عليه ربطات مختلفة مزدانة ذات ألوان بهيجة، خطر لى أنها عسى أن تكون «الهدايا» التى أهديت إلى فى «عيد ميلادى» ونسوا — لا أدرى كيف؟ — أن يقدموها لى، أو حتى أن يذكروها. ولكنى لم أعن بها وانصرفت عنها إلى التليفون، وهو فيما أعلم، أو فيما كنت أعلم، مجعول لتيسير أسباب

الاتصال بين الناس، ولكنه كان في ليلتي هذه كأنما جعل لمكيدتي وامتحان صبري، فما رفعت السماعه عنه مرة وأدريت رقم تليفوني إلا خلتنى في نادى سمر وقصف، وما أكثر ما سمعت مما لو قرأته في كتاب، أو شهادته على مسرح أو في سينما لقلت إنه شطط في التخيل، ومبالغة في الاغراب، وكثر المتطفلون على، وكانوا ينهروننى ويأمروننى أن «أخرج» ويوبخوننى ويقولون لى إن استراق السمع عيب، كأنما كنت قد فعلت ذلك، أو تعمدته، أو كأنما هم لا يُعدون أيضاً متطفلين على! وشتمنى واحد بألفاظ لم أكن أعلم أنها مما يجرى به اللسان حتى بين المرء ونفسه، فتعجبت للإنسان وما ينطوى عليه من جبن أصيل، وسوء أدب وقلة مروءة، وظننى بعضهم فتاة لأن صوتى قد صار كصوت البنات كما أسلفت، فراح يغازلنى ويحاول أن يتعد معى!

وكدت أخرج عن طورى، فقد أجهدى وأتلف أعصابى هذا الخلل الذي أصاب التليفون، ورأيتنى مرات أهم بأن أصبح لأطرد هؤلاء الطفيليين الواغليين الذين لا يزالون يحشرون أنفسهم كلما طلبت الرقم كأنهم، آلوا على أنفسهم ليحولن بينى وبين الاتصال بمن أريد، وخفت عاقبة الصباح فألقيت السماعه وعدت أدرجى إلى غرفتى، لأطمئن، فقد جري بظنى أن لعل بعضهم قد زارنى ليرى كيف حالى.

ولكنى وجدت كل شيء هادئاً كما تركته. فقلت أنفض الأرض حول البيت فإن الليل فرصتى، فلن يأخذ أحد على متوجهى.

وكان باب الشرفة مفتوحاً ليدخل الهواء. فخرجت إليها ومددت، فجذبت غصنا من الشجرة التى لفتت نظرى فى الصباح والتى تسلقها عم أحمد لما جاءنى بالنمل. وجلست على حافة الشرفة، وثبتت رجلى بين فرعين. وانتقلت إلى الشجرة. وتذكرت أنى كنت فى حادثتى الأولى أحسن تسلق الشجر. وشجعنى ذلك وقوى قلبى، وإن كان الحذر لم يزالنى، وكان فى أغصانها خشونة آذت هذا الجلد الرقيق الريان، وخطر لى وأنا أتأفف أن حمادة على حق، فما هذا بجلد صالح لجسم رجل. وتذكرت وأنا أنتقل هابطاً بين الغصون شجرة جميز سهوق فى بيتنا الذى نشأت فيه كنت أوثرها على السلم. ولكنى كنت ولداً قوياً مصكاً لا أعيأ بعمل لا كهذا الخرع الذى دسونى فيه.

وبعد مشقة عظيمة صارت قدماى على الأرض. فنفضت التراب والورق. وشرعت أتلفت. وتمنيت لو كنت أعرف أين العم أحمد الآن، فأذهب إليه وأستعين به فى غيري. فقلت أن أسير على غير هدى. ولم يكن فى رأسى خطة واضحة. وكان كل ما يخطر لى هو أن أحاول أن أعرف أين أنا من الكرة الأرضية؟ فقد رجح عندى أنى ما زلت عليها. ولقد كان هذا أولى بالنهار. ولكن ما فات مات. ولا فائدة من الأسف.

وطار طائر ففزعت لحركة جناحيه المفاجئة وخفقهما. وكنت قد نسيت الظلام وما عسى أن يطالعنى به. فسألت الله السلامة. ولست ممن يخافون الليل وسواده، ولكنى انتقلت إلى جسم جديد، أجهل كنهه. ولقد امتحنته في المساء فخبب أملى فمن أدرانى الآن أنى لست متهوراً في هجومى به على هذا الليل الأسود؟

وما كاد هذا يمر بخاطرى حتى رأيت عينين واسعتين شاخصتين فاضطربت وزاد اضطرابى أنى لا أرى الجسم الذى تطلان منه. ولم أدر أهما عينا أفعى أم قط أم بومة؟ وتراجعت ویدی على فمى لأكتم الصرخة التى أحسست أنها ستنتطق. ولم أر أن ذا العينين يدنو منى فاطمأن قلبى قليلا. وخطر لى أن أجرب. فقلت: «بس» فاختفت العينان. فأقدمت وسرت خطوات. وإذا هما أمامى مرة أخرى. فقلت: «بس» فاختفتا ثانية. فمضيت فى طريقى وقد أيقنت أن هذا قط أسود ولكن خوفى ما كان يخف إلا ليشد، ولا يذهب إلا ليجىء. فقد كان القط — كلما قلت «بس» — يتركنى أو يختفى، او يمضى أمامى، ولكنه كان فيما يخیل لى، كأنما ينط ويدور ويرشقنى بهذه النظرة الجامدة الساكنة التى لا يتغير تعبيرها؛ وكان ربما كبر فى وهمى أنه عفريت، خرج لى فى زى قط، ولكنى كنت أطرد هذا الخاطر وأقول إن «سونه» قد تفزعه العفاريت أو القطط ولكن سونه يحتل بدنه عقلى أنا الناضج الذى لا تخيفه هذه الأوهام.

وصار القط رائدى، فهو يمضى قدامى، وأنا أمضى خلفه. فما كان يهمل أن يبدو لى بعد كل اختفاء، وما كان أغرب أن أمشى مهتديا بعينين تومضان فى ظلمة الليل، ولشد ما وددت أن ألمس الجسم الذى هما فيه. فقد كانتا كأنهما منزوعتان ومرسلتان فى الفضاء وحدهما، وبمجردهما.

وإننا لنخبط فى هذا الليل — أنا والقط أو أنا وعيناه — وإذا بزمارة الإنذار تنطلق مؤذنة بغارة جوية. يا خبر أسود! وما العمل الآن؟ لقد بعدت عن البيت حتى اختفى فأنا لا أراه ولا أعرف موقعة من الجهات الأربع. فأين أختبئ إذا احتجت إلى الاختباء؟ وسيلتمسوننى فى غرفتى ليحملونى معهم إلى مخبأ — إذا كان لهم مخبأ — أو ليطمئنوننى ويذهبوا عنى الروع. ولن يجدونى. وحينئذ تقوم القيامة. وكيف حال أهلى يا ترى الآن؟ أهلى أنا لا أهل الذى أنا مدسوس فيه؟ وحدثت نفسى أنه لا خوف عليهم أن يجزعوا كما أرى الذى ابتليت بجسمه يجزع. فقد راح ينتفض ويرعد حتى كاد يخلع لى فؤادى. ثم ذهب يعدو ويدردب من الخوف ويحملنى معه هنا وهنا من فرط الفرق والحيرة. وأنا أصبح به — من الباطن: ماهذا؟ ليس هكذا يصنع العقلاء.. ألايمكن أن تقف وتسكن

حتى أفكر لك؟ فلا يقف ولا يسكن ولا يتيح لي فرصة للتفكير. فأنا محمول معه بكرهى إلى حيث لا أعلم.

وسمعت طلقة مدفع فقلت: «آه جاءك الموت ياساكن جسم سونه الأهوج الاخرق الوهنان» أترى عقله قد أخلق وتمزق واحتاج أن يرقع بعقلى؟ وليته يدعنى أرقعه له! إذن لاستطعت أن أجرى أمره على استواء.

وزهدت أعدو معه، وهل كان يسعنى أن أتخلف؟ وإذا بى أصطدم بما حسبته أول الأمر شجرة أو نخلة، ثم تبينت أنه إنسان مثلى، فقد قال: «أخ» كما قلت ووقعت على الأرض ولكن يدي كانت مطبقة على قطعة من ثوبه عرفت، فيما بعد، أنها تكة سراويله، فأدركت أنه العم أحمد. على أنه أعفانى من إضناء عقلى فقد سألتنى: «من هذا؟ لكأنى به سونه؟» فعرفته من صوته قبل أن أعرفه من شارته ورايته — أعنى تكته.

وقال سونه — أخزاه الله: «خبئنى ياعم أحمد»!

فخجلت، ولو كنت بادياً، ولم اكن مختبئاً، فى جسده الخوار لتصببت عرقاً. وماكنا سمعنا سوى قذيفة واحدة فما كل هذا الفزع والجزع؟ ومن حسن الحظ أن العم أحمد لا يستطيع أن يرانى فى مخبئى الآدمى، وإلا لذبت خجلاً.

وربت العم أحمد على كتف سونه — ولو استطعت لدفعت يده، فما كانت بى حاجة إلى طمأنية — وقال: «لاتخف! تعال معى». قلت: «إلى أين؟»

قال: «إلى البيت طبعاً ... لماذا خرجت؟ وكيف خرجت فى هذا الوقت؟»

فاختلفت أنا وسونه: هو يريد أن يحدثه عن الغراب الذى طار عن الشجرة فأطار لبه، والقطة التى أرعبته فى الظلام بعينيها، وأنا أشعر أن فى وسعى أن أكاشف هذا الرجل بسرى، ألسنت قد تبينت أنه يحب لولو والحب يلين القلوب وينشط الخيال، ويكبر القلب، ويقوى العطف، والرجل الذى يحب لولو لابد أن يكون له نظر وذوق، وإن كان لا يحتاج إلى نظر كثير ليفطن إلى جمالها، فأخلق به — بفضل فطنته ونظره — أن يرى أنى مخبوء فى هذا البدن الذى ليس لى، وأنى فى الحقيقة موءود فيه! وعسى أن يساعدنى على الاهتداء إلى بيتى وأهلى فأتصل بهم ولو من ناحيتى أنا.

ولم يطل الخلاف، فقد تغلب سونه فإنه ذو اللسان، وأنا أخرس أو لا لسان لى على الأصح، فقد بقى هناك مع جسمى الفارغ، فلشد ماتتحكم الأجساد فى النفوس وتسيطر عليها! هذا أنا — أسكن جسدا لم يسو على قدى، ولم يصنع على قياسى، فهو يستطيع أن يصنع بى ماشاء، ولا أستطيع أنا إلا أن أتأسف وأهز رأسى هزاً مجازياً، فما لى رأس كما لاحتاجة بى أن أقول.

ولم أكن أعرف أن سونه كذاب مدّاع، فأدهشني فشره ومعره، وأخجلني أيضاً، وحاولت أن أغمره ليقصد فيما يزور ويختلق من الأباطيل والترهات، ولكنه لم يحفل غمزي أو لم يشعر به، وراح يخبر عن خرافات لا أصل لها، ولم يقع منها شيء ويقول فيما يقول إن ماردا سد الطريق في وجهه، فرماه باية الكرسي فاحترق المارد وخلا في وجهه — اعنى سونه — الطريق.. وزعم أيضاً أن ذات مئزر أبيض همت بعناقه وضمه إلى صدرها الذي كانت الابرة البارزة منه تلمع في الظلام ولو ضمته لانغرزت الابرة في صدره هو فمات — فقلت في سرى: ليتك مت! إذن لأمكن أن أنقل إلى جسم آخر لاتخجلني سكناه — ولكنه حاورها وفر.

وصارت القطة في أساطيره ذنباً، تارة، وكلباً عقوراً تارة أخرى. أما الغراب فكان ساحرة يطير بمقشة كما رآها على ما يظهر في بعض الصور المتحركة. فقلت لنفسى: «والله إنك لذو خيال ياهذا، ولكنه خيال لا يعدو خيال الصبيان من أمثالك ولا يجاوز بك آفاقهم. فإذا كان لابد لك من الكذب والادعاء فهلا كنت استشرتني لأهلك ماهو أبرع من ذلك؟»

ولكن المدهش أن العم أحمد لم يدهش، ولم يشمئز من هذا الكذب الصراح، بل كان يشجعه عليه ويستزيده منه ويبدى له التصديق، والاستطابة، ويحمد الله — تعالى — على نجاته تارة ويثنى على شجاعته وقوة قلبه طوراً، وهكذا إلى أن بلغنا البيت فقلت لنفسى ستسمع بضع أساطير أخرى حين تجتمع علينا الأم والعم والخدم. فما يليق أن يحرمهم السيد سونه الاستمتاع بمثل ما استمتع به الجانيى من ثرثرة لسانه الحلو الذى يظهر أنه يفرح بقدرته على دهورته فى شذقه.

وتحسسنا طريقنا حتى هبطنا إلى حجرة مسدودة النوافذ، وفيها نور ضئيل أخضر من مصباح بترول صغير موضوع على الأرض فى ركن، وكنت اتعجب لعم أحمد ودخوله البيت كأنه من أهله، وفى هذه الملابس التى لا يلىق أن يلقى بها أحداً وخاصة إذا كان هذا الأحد سيدة، وزاد عجبى أنى رأيتهم لا ينكرون وجوده بينهم واجترأه وتسحبه عليهم هكذا.

وأقبلت الأم والعم ولولو والبقية، وصار كل امرئ يرمىنى بسلسلة متصلة غير منقطعة فن الأسئلة، ولا ينتظر جوابها.

ولما كلت الأسئلة، وفترت همتها قال سونه: «لما سمعت الزمارة خرجت لأتفرج فقابلنى عم أحمد وعاد بى».

بهذا الإيجاز المخل! فلو استطعت لقرصته! فعدوا يقولون كيف يفعل ذلك وهو لم يشف؟ وكيف يخاطر بحياته الغالية؟ وكيف وكيف حتى ضجرت في جوفه، ولكنه كان يبتسم ولا يستثقل حملتهم اللفظية.

وما كاد أكثرهم يكبح لسانه ويكف عن اللغط حتى خيل إلى أن الأرض تميد. فقد انطلقت المدافع مرة واحدة، انطلاقاً متتابعاً، وكانت كأنها قريبة منا، وكنا نحس أن بعضها منصوب على بابنا، فقالوا: يا ستار استر ... وجمعتنى أمى في حجرها وأحاطتنى بذراعيها وألصقت وجهى بصدرها، ولم أكن أنا خائفاً ولكن سونه كانت تصطك ركبته وأسنانه، ولم يكفه هذا فأنشأ يبكى بصوت عال! ولا يكتم أنه «خائف يا ماما»، حتى هذا لم يكفه فصرخ، ولم يكن هذا لائقاً، ولكن ما حيلتى وهو الذى في وجهه العين الباكية، وفي فمه اللسان الدائر؟ ولو كان الأمر إلى أنا وحدى، لأقعدته على كرسى ولزمته الرزانة والاتزان ورباطة الجأش، ولوضعت له رجلا على رجل، وجعلت في يده سيجارة، فإن التدخين يطيب في مثل هذا الوقت، ويعين على إفادة السكينة. وعلى ذكر التدخين أقول إنى لم أر في هذا البيت الطويل العريض أحداً يدخن، فلم أستطع أن أحتال وأسرق سيجارة أدخنها سراً وخفية، ولعل هذا الحرمان هو الذى أضعف إرادتى فراح سونه يركض بى بغير عنان.

ولم يطل الأمر، وانطلقت الصفارة المؤذنة بانتهاء الغارة، فما راعنى إلا أن هذا الفتى الاخرق قفز من حجر أمه وانطلق يصفق ويقول: «هيه ...» ممطوطة طويلة. وأخجلنى سونه مرة أخرى ونحن نصعد درجات السلم عائدين إلى غرفنا. فقد تعلق بذراع أمه وراح يموء كالقطعة، فلما سألتها عما به قال إنه خائف ... فبالله مم يخاف هذا الرعديد؟

وزجرته همسا: «اختش يا شيخ ... عيب».

ولكن من يقول ومن يسمع؟ أنا من جسده في مثل غيابات الجب التى ألقى فيها يوسف — عليه ألف سلام — وما أحسبه — أى يوسف — خاف مثل هذا الخوف الذى يخافه سونه، ولو فعل لكان معذورا، فقد كان في جب، وكان وحده. أما هذا فما عذره؟ وهو في بيت، بل قصر معمور، وأنا معه لا أفارقه، وأونسه وإن كنت لا أنس به؟ وهو — أعنى سونه — على رأس السلم، وتحت ذراع أمه التى تهدئ من روعه وتعهده أن تبقى معه، فكيف يصغى إلى هذا الصوت الخافت الذى يشبه صوت الضمير، ويهمل صوت أمه الواعد بالأمن والاطمئنان وأين في الناس من يلقي باله إلى الضمير الذى لا يحسن إلا التنغيص؟

وتذكرت أيام كنت أنا حدثاً مثله في حياتي المستقلة، وقبل أن تتصل أسبابي بأسبابه — أى سونه — وكيف كنت أقطع طريق الصحراء الموحشة، وحدى، في الليل البهيم، وأجتاز منطقة القبور اختصاراً للطريق، في الظلام الدامس، ولا أفزع ولا أتهيب، ولا يخيفنى عفريت، أو قاطع طريق، أو مجرم متربص، وكان البيت الذى نشأت فيه فى حارة عتيقة، وكان الغلمان — غیری — يقطعونها عدوا حتى فى النهار المشمس، لشدة ما ينتابهم من هولها، وكان بئر السلم — والعيان بالله — يجعل قلب أجراً الناس كلعبة اليويو، فى صعود وهبوط بين الحذاء والصدر، فقد كان يوقع فى الروع أنه مباءة العفاريت والقتلة، ومع ذلك لم أكن أقول: «ياماما أنا خائف» كما يقول هذا الفتى الذى سود وجهى.

وقال عمه ساخراً: «خائف؟ من أى شىء يا سيدى؟»
فهمست فى أذن سونه، أوبخه: «سامع؟»
«وانت مالك؟ لعمه، لا لى.

فدهشت، وطربت! وصحيح انه قالها بضعف، وبلهجة الطفل المدلل الذى اعتاد أن يسىء أدبه وهو آمن، ولكنه قالها والسلام. وبارك الله فيه! ولا فض فوه! ورجوت بعد أن سمعت منه ذلك أن ينتهى بنا الأمر إلى حسن المواطنة وطيب العشرة.
وانتنت أمه عليه تقول له: «لا يا بابا ... عيب ... هذا عمك».
فترك سونه عمه و العيب، وكر راجعاً إلى رأس أمره وقال: «أنا خائف».
فكررت أنا أيضاً راجعاً إلى سخطى عليه ... ولعله إنما أراد أن يخرج من المأزق فلله ولا عليه. ولكنه ما كان ينبغى أن يعود فيلهج بالخوف مرة أخرى. والحق أقول إنه خيب أملى.

الفصل الثالث عشر

وصارت المسألة عندي بعد ذلك، وأنا راقد على سريرى — أعنى على سريريه هو كما هو ظاهر — فى حضن أمى، وظهرى إليها، ووجهى إلى الحائط، ويدها علىّ لأطمئن، هى هذه: «هل أطيع العيش فى هذا الجسد»؟

وقلت لنفسى: ينبغى أن أحصى مزايا هذا التحول ومساوئه. فمن المزايا أنى رددت طفلاً غنياً، وكان من السهل أن أن يقلبنى الذى قلبنى، طفلاً فقيراً، يسكن كوخاً حقيراً، ويعانى مرارة الفاقة وذل الحاجة. ثم إن هذه الأم رقيقة القلب حنانة، وهى إلى هذا تشبه زوجتى، بل هى هى بعينها، فأنا لا أشعر أنى فارقت زوجتى، فإنها معى أبداً، وإن كنت قد حرمت ما يجنيه الزوجان من متع القرب، ومن الهين رياضة النفس على هذا الزواج الروحانى وأخلق أن يعيننى — أو يرغمنى — على الاكتفاء به، أن لى هذا الجسد.

ويبقى الولدان، وفى وسعى أن أراهما متى شئت، كما رأيتهما الليلة. وإن بينى وبين أصغرهما لثأراً، ولكنى بعد أن أصخه كما صخنى، أستطيع أن أفىء به وبأخيه إلى الصداقة والمصافاة، ويكبران وأكبر، فما أغرب، وأحلى، أن نصبح أتراباً ونسيم سرح اللهو معاً، ونركب الحياة بشبابنا، وأكون لهما صديقاً لا يعلمان أنه أبوهما، وأوقظ رأبى لهما، وأجعل تجاربى فى حياتى الأولى رائدى فى السهر عليهما ورعايتهما وتسديد خطواتهما، ولا يكونان هما معى إلا على حال الصديق مع صديقه من الود والالفة ورفع الكلفة وطيب المشاركة فى الجد والهزل! أى نعم، وبذلك أصل ما انقطع، وإنه لعناء أن أتناسى أنى أبوهما. ولكن لا بد مما ليس منه بد.

ولكن البلاء والداء العياء، أنى لا أرانى مطيقاً لاعتياض هذه الشخصية الفجة التى لم تنضج، من شخصيتى القديمة، كلا هذا عسير، وهو المعضلة الكبرى فى الامر كله،

وما أرى الذى آتانى هذا الجسد الصغير إلا قد أخطأ وكلفنى شططا، ولو كان أهرمنى وأعلى سنى، وأسكننى جسداً مقوس القناة وجعل لى وجهاً مغضنا، كالمدينة بادية من طيارة، واشاع الشيب فى رأسى، لكان أهون، وأخف محملا. ولكن أيسر على أن أتقبل هذه الوثبة إلى الشيخوخة وأسكن إليها لأنها هى التى تقترن فى الذهن بالحياة مع امتداد العمر، والمرء يتوقعها ويعرف أنه يدلف إليها، ولكن استمرار الحياة لا يقترن فى الذهن أبداً بهذه الرجعة، أو بهذا الهبوط إلى سفح الجبل بعد أن قارب المرء ذروته. وليس فى الحياة لا وقوف ولا رجوع إلى الوراء، فكيف يمكن أن أوطن نفسى على هذا المستحيل؟ وقد ألفت نفسى وانتهى الأمر، وعرفت أنها نفسى، ورضيت بها، وعنهما، وإن خالف رأى الناس فيها رأى، فكيف يعقل، وأنا لا أزال أحس هذه النفس، واعتز بها وأباهى، وأحرص عليها، وأضن بها أن أغالط أقول بل نفسى هى هذه الجديدة التى ما عرفتها ولا خالطتها ولا بلوتها من قبل، ولا حمدت منها شيئاً على قصر عهدى من قبل، ولا حمدت منها شيئاً على قصر عهدى بها؟ وإنى لادرك أن نفسى باقية معى، ولكن المصيبة أنها لا تتبدى، ويحببها هذا الجسد الصغير الذى أسكنته. وأخوف ما أخاف أن يحصل على الأيام امتزاج بين النفسين، وما يدرينى أن ثمرة المزج لا تكون ائتلاف أسوأ ما فيهما جميعاً؟ لا يا سيدى يفتح الله ... هذا خلط غير مأمون العاقبة، ثم إنى لا أريد خلطاً، ولا مزجاً ولا شعشة. وما شكوت أو تدمرت حتى يفردنى بهذا من قضاة على، وجعلنى به بدعاً فى الناس. فلا أنا ولا أنا غيرى.

وأفزعنى خاطر استطردت إليه: ذلك أنى قلت لنفسى إن الذى حدث لى لا يعدو أن يكون شبيهاً بالرفو والرقع، وإذا جاز هذا وتسنى فيما يلبس، فإنه لا يجوز ولا يسهل إذا كان الأمر أمر شخصية. وصحيح أن الشخصية الجديدة التى يحصل بها الرفو أو الرقع، جديدة، لأنها حديثة عهد بالوجود والحياة. ولكنها تبدو للشخصية القديمة التى يراد رفوها — لا أدرى لماذا فما كانت أخلقت وبلبت — أقول إنها تبدو دونها، وأقل منها قيمة، وأهون شأنًا، وأقل نفاسة، لأنها لم تنضج ولم تستوف الحظ المقدور لها من اكتمال الجوانب — وهذا كله يبدو لى خلطاً لا يحسن به الحال أو يستقيم الأمر، أو يطيب العيش. ولما كان الذى سلخ جلدى، ثم لى ودسنى فى هذا الجسد الصغير قد صنع معجزة، فلا بد أنه قادر أن يأتى أيضاً ما يفتضيه ذلك، فمن المعقول إذن أن يقل عقلى على الأيام ويصغر، حتى ينقلب مناسباً لهذا الجسد الصبباني. ولعله استغنى عن معالجة التصغير بنفسه، ثقة منه بأن الجسد الصغير سيفعل فعله من تلقاء نفسه.

وتذكرت وأنا أدير هذا في نفسى أن بعضهم كان يقول عن خياط فيه شذوذ إنه كان لا يقيس طول الزبون وعرضه بل يطرحه على منضدة ويخط له حدوده بالطباشير كما يفعل الحذاء حين يرسم قدمك على الورق بالقلم الرصاص. قالوا: وكان يقول للزبون إذا أشتكى ضيق الثوب: «كش فيه». فيظهر أن القدر يكلفنى الآن ما كان هذا الخياط يكلف زبانه من التجمع في الثوب الضيق، ويطالبني بأن «أكش» في جسد سونة حتى يصبح كلانا على قد صاحبه. وما أرى سونه سيتجشم عناء. فإن العناء كله من نصيبى. وهالنى هذا، وشق علىّ أن يقل عقلى، وأخذنى النوم وأنا في حيرة واضطراب وجزع من أن يصبح عقلى أصغر مما أمسى.

ورأيت فيما يرى النائم أنى ولد صغير في كوخ لساحرة عند سفح جبل، ولم أكن أعرف من أنا، ولا من أين جاءت بى، وكان كل ما أعرفه أنها تسخرنى لخدمتها وترهقنى بها، فتناولنى دلواً عظيمة وتبعث بى إلى الجبل! فلا أزال أصعد فيه حتى أبلغ قمته، وهناك أملؤها وأعود بها إليها. ولا أزال في هذا الكد المضنى طول النهار.

ثم تغير الحلم فصرت فيه كلبا لعجوز فقيرة، ولكنها طيبة القلب، فكنت إذا جعت نبحت، وقلت: «وو.. وو.. إنى جوعان. فانظرى في هذه الخزانة لعل فيها عظمة»، ولا أزال أوهوه، وأمد صوتى، وأعوى متضرعاً حتى تجيئنى بطعامى. وإذا بالعجوز الطيبة الكريمة تنقلب مستبدة ظالمة، فتصنع لى ثياباً — ستره وسراويل — وتلبسنى طربوشاً، وتضع فى يدي عصا، وتقول لى اخرج وأضحك الناس — والأطفال خاصة — بألاعيبك وحذقك فيها، واجمع فى هذا الطربوش ما يجودون به عليك من قروش أو ملاليم، فأخرج متزماً متأففاً، مستهجنًا هذه الملابس الآدمية التى لا تليق بـ كلب مثلى، ولا يسعنى إلا الطاعة، وإلا ضربتنى وأوجعتنى. وقد أثرت العجوز، فاتخذت غنما كثيرة تباع ألبانها وأصوافها وصغارها، فنضت عنى ما كانت كستنى، وولكت إلى حراسة الغنم فى رعيها وسقيها ومرايضها، حتى أخذنى البهر من الحر والمشى، وأضمرنى الكلال، وهى لا ترحمنى ولا تريح عصبى، ولا يعطفها على ما أسلفت فى خدمتها ولا تزداد إلا حرصاً وجشعاً — ولا ترى لأحد شيئاً إلا أحبت أن يكون لها.

الفصل الرابع عشر

ولكل شيء آخر — حتى الليل الطويل الغاص بالأحلام المزعجة — ولم يكن نومى هنيئاً، ولا مريحاً، فما كاد الصبح يتنفس حتى تمطيت وحمدت الله على اليقظة من نوم قصير مضطرب، وتثاءبت وفتحت عيني وقلت لِنفسي: «صباح الخير ياسونة، وعسى أن يكون يومك أطيب من أمسك.» وحدثت نفسي أن اليوم السبت، فالأرجح أن أذهب إلى المدرسة، والله المعين. فما أعرف أين هي؟ ولا أدري في أى فرقة أنا؟ وتذكرت أنى لم أر في هذا البيت كتاباً أو كراسة أو ورقة أو قلماً. بل لم أر حتى لعبة لـغلام مثلى، فما أغربه من بيت! وما أعجبها من حياة! وألفيتنى أتساءل: «أتراهم علمونى شيئاً؟» وابتسمت، فما أحتاج إلى التعليم فإنى كبير في الحقيقة، وأخلق أن يروع التلاميذ ويدهشهم مايفاجئهم بعد اليوم — من اليوم فصاعداً — من علمى وسعته! وسيكون أمر المدرسة والتعليم فيها أهون ما أعانى: وإن كان «الحساب» سيضنننى ويرهقنى، فقد كنت — احسبنى ما زلت — أبغضه لأنى لا أحسنه وما أكثر ما قلت لحماذه وسعيد — ولدى — بارك الله فيهما — وصديقى وأخوى بعد اليوم — حين كانا يجيئانى بمسألة من الحساب: «اسمعا! إنى طول عمرى حمار فى هذا الحساب. ولا أدري كيف كنت أجتاز الامتحانات المدرسية فيه، ولكن الله كان يسترّ ويلطف، فينتهى الأمر بسلام وخير. وإنى لأذكر أنه كان يراقبنا فى امتحان الشهادة الابتدائية معلم فرنسى طويل اللحية. وكان ينحط على الكرسي وينام، فلما صرنا إلى الحساب لم أستطع شيئاً، وأيقنت أنى لا محالة مخفق، فكدت أبكى. وتلفت فرأيت جارى على مسافة ذراع منى، مكبا على ورقته يكتب. وكنت أعرفه حاذقاً بارعاً. فدفعت إليه بورقتى وأشرت إليه إشارة الرجاء والاستعطاف فرق لى قلبه. وكتب لى حلول مسائل ثلاث، فنهضت بالورقة وأيقظت بها المراقب. وخرجت قبل غيرى قانعاً بما جاد به زميلي.»

فيذهبان عنى إلى أمهما فإنها تفهم ما لا أفهم من هذا الحساب، وما أظن إلا أن المرأة أقدر عليه.

نعم سيكون الحساب علة شقائى مرة أخرى.
والجغرافيا أهون ولكنها ثقيلة، وكان معلمها يأمرنا أن نغنى بأسماء الخلجان والأنهار والرءوس والبلدان لنحفظها عن ظهر قلب فحفظناها إلى حين ثم نسيناها وكيف تبقى أسماء لا تقترن بشيء يذكر بها؟ فكيف يصنع معلمى الجديد؟ إنه لا شك من طراز أحدث فلعل له طريقة أخرى أجدى.

وانقلبت على جنبى الأيمن فصار وجهى إلى باب الشرفة، وتوقعت أن تدخل لولو بعد قليل وتصبحنى بوجهها الحسن وابتسامتها الحلوة، وهممت أن أقول: تالله ما أجملها وأبرع حسننها! ولكنى قلت بدلا من ذلك: «إيه؟ بلهجة المنكر لا المستفسر، وجلست فى السرير، وفركت عينى، وجعلت أطرف، ثم رحت أستثبت، فقد أصبحت فى غرفة أخرى غير التى أعرف أنى قضيت الليل فيها، أفترانى سأنتقل كل صباح — أو كل ليلة — إلى بيت جديد وبدن جديد؟ ولكن هذه ... هذه غرفتى! أى والله هى بعينها.

ووثبت إلى الأرض، وذهبت أعدو إلى الباب فأدرت فيه المفتاح، أو أردت أن أديره، ولكنى كنت عجولا فخرج ووقع على الارض، فانحنيت وتناولته وأنا أسخط على نفسى ودفعته فى الثقب، أو جعلت أدفعه فلا يدخل من فرط اضطرابى وارتعاش يدي، وبعد لأى ما فُتح الباب، فانطلقت خارجاً كالصاروخ، وداخلا على زوجتى فى غرفتها، وكانت لا تزال نائمة، فطرحت الغطاء الرقيق الذى تستر به جسدها وجذبتها من ذراعها. فقامت معى تقول: «إيه؟ مالك؟»

قلت، أو صحت: «قومى يا امرأة ... انظرى إلى ... أأست كما كنت؟ هل تغيرت؟»
قالت: «ماذا، جرى لك؟ ما هذا النط الذى تنطه كالقروء؟»
قلت محتجاً: «قروء؟ أسألك كيف تريننى فتقولين إنى أنط كالقرد؟»
قالت: «ماذا أصنع إذا كنت تنط مثلها تماما؟» قلت: «طيب. دعى هذا وقولى كيف تريننى؟»

قالت ببرود: «مالك؟ كما كنت سوى أن خدك وارم.»

قلت: «خدى وارم؟» ورفعت يدي إليه اتحسسها.

وسمعتها تقول: «قرصة نملة على ما يظهر.»

قلت: «وكيف تريننى فيما عدا ذلك؟»

قالت: «أراك قليل الذوق. توقظني في الفجر لتسالني سؤالاً بارداً ... ماذا جرى لك؟ قلت: «إنها تسأل ماذا جرى لي»؟

وخطر لي أنها لا تعرف فلها العذر، وأدرت عيني في نفسي. فألفيتني على عهدي بها، لا كما كنت أمس — أعني.. تعرف ما أعني — ودفعت يدي إلى وجهي، فشعرت بخشونة الشعر النابت، وإلى شفتي العليا فإذا عليها الشاربان، فتشهدت وتنهدت، وارتيمت على كرسى.

وسمعتها تقول وهى تضع رأسها على المخذة: «اذهب ونم فما زالت من الليل بقية». فوقفت، وقلت: «أنا أنام؟ مستحيل ...».

قالت، وأدارت وجهها عني: «شأنك. أما أنا فسأنام. فاذهب عني من فضلك». قلت أعاتبها: «وتتركيني؟»

قالت مستغربة: «أتركك؟ لست فاهمة. مالك اليوم؟»

قلت: «أولا لا تقطبي، ثانياً اجلسي أقص عليك حكاية، وبعد ذلك قولي لي هل يجوز أن أخاطر فأنام مرة أخرى؟»

فاعتدلت وقصصت عليها ما كان مما رأيت في الحلم وهى تضحك. فلما فرغت قالت: «هذا جزاؤك ألم أحذرك؟ ألم أنك أن تذكر الشيخه صباح إلا بخير؟» قلت: «ولكنك أنت التى قصت علينا حكاية البستاني والمك فأوحت إلى ما تمثل لي في منامى».

قالت: «بل هذا من غضب الشيخة صباح عليك».

وكانت أعصابى لا تزال مضطربة من أثر الحلم، فلم أجادل ولم أكابر. ولما أضحينا قلت لها: «ما قولك؟ اليوم السبت وليس على عمل ...».

قالت: «سبت إيه؟ إنه الجمعة!»

قلت: «الجمعة؟ كيف يمكن؟ لقد كان أمس الجمعة».

قالت: «ألا ترى أن الولدين لم يذهبا إلى المدرسة؟»

قلت: «صحيح! وغريب أن أعيش الجمعة مرتين في أسبوع واحد ... على كل حال ... أريد أن أقترح أن نركب السيارة إلى طنطا ونزور الشيخة صباح».

قالت، ويدها في حجرها وعيناها إلى فوق كأنما ترى الشيخة صباح في السقف: «إنى لا أشبع من النظر إلى حسن وجهها».

قلت: «اتفقنا إذن».

ورفع السجف، ودخلت علينا الشیخة صباح فی شملتھا البیضاء تمشی كأنھا ملكة، فنهضت واقفا، فافتر ثغرها عن ابتسامة خفیفة، وناولتني یدھا فانحنیت أرید أن أأثمھا، ولا أخشی أن تسیء بی امرأتی الظن. ولكنها جذبتھا فاعتدلت وقلت لها: «أنا أعرف أنك لا تأخذین منا شیئا. فخذی هذه الساعة».

فهزت رأسھا، ولكنی وضعتها فی كفھا، وثنیت علیھا أصابعھا. وقلت: «إنھا ساعة أمی. وكنت أعتز بها وأضن».

فطلق وجهھا وتهلل. فقد كانت تعرف عظم محبتی لأمی. والتمعت عینھا، ورفرت علی شفתיھا ابتسامة، ورفعت الساعة إلى أذنیھا وأصغت، ثم هزت رأسھا مسرورة، ونحت الشملة عن صدرھا. ووضعت الساعة هناك.. قریبا من قلبھا.

ثم تناولت رأسی بین یدیھا، وتحركت شفطاھا بدعاء لم أسمعھ.

وقالت امرأتی ونحن نعود إلى السیارة: «الآن تستطيع أن تنام مطمئناً».

قلت وأنا أستوی علی مقعدی: «ولا تقصین علی مثل هذه الحکایات؟

فرنت الی فی سکون، كأنما تتوضح شیئا، ثم ابتسمت وهزت رأسھا أن نعم.

فجمعتها بین ذراعی وبستها.

فقلت: «فی الشارع؟ ألا تستحی؟»

قلت: «هذا من فرحتی بك. واحذری أن تغالطینی مرة أخرى».

قالت: «أنا أغالطك؟»

قلت: «نعم. فی المنام».

فضحكت ... ووسعنی أن أضحك مثلھا

